قصص قصيرة

زيد الشهيد

فمُ الصحراءِ النَّادِه

زيد

زيد الشهيد

فمُ الصحراءِ النـَّادِه

قصص قصيرة جداً

جميع الحقوق محفوظة

الكتاب : فمُ الصحراء النَّاده

تأليف : زيد الشهيد

الطبعة الاولى :2011

تصميم الغلاف : أمينة صلاح الدين

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق – بغداد2075 لسنة 2010

رند

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق / جوال : 944628570 00963

Email: akramaleshi@gmail.com

المحتويات

رؤية : من تجربتي في قصص الصحراء

قراءة : للناقد المغربي السعيد موفقي

القسم الأول

(1) قطرة حمراء فاقعة

(2) على ايقاع الرمل

أ- وابل من جفاء

ب- سادراُ في النأي

ج- مواجيد الفقد

(3) انشطارات المباغتة والتجنّي

أ – انتظار قاتل

ب – ذكرى هاربة

ج – ترفاس .. ترفاس

(4) وقائع مدرسية

أ- الثعلب

ب- شفرة السؤال

ج- ربيع سليمة

(5) تحولات امبيّة

أ – شفرة الانطفاء

ب – وطأة العشاء الباذخ

ج – تحولات

د- تماهيات التضاريس المقدسة

(6) من فيوض الواحة

(1) رغاوي الصبر

(2) فلاش باك

(3) انفاسُها والشِّباك

(4) عاطفة محايدة

(5) نواصي الإدهاش
(6) دفوف
(7) واحة وفتاة
(8) مقبرة .. ونزيل .
(9) شغف ومتحلقون
(10) هواجس ممضّة
(11) شغف ومتحلقون

القسم الثاني

(1) فم الصحراء الناده
(2)صحراء .. وحكايات
أ- أخوان ضباع
ب- أيقونة الثكالى
ج- بحثاً
(3)رمضاء الحكايات السخينة
أ- تلك الانبساطة المبهمة
ب- فمٌ كتيم
ج- تحت الرمل

(4) افتضاضات

(5) رَشَف

(6) ذهول الغيب

(7) نحت الأيام

في خضم السرد .. تنويعات المكان

من تجربتي في قصص الصحراء

... ويبقى السرد أداةً في تمكُّنية السارد إن سعى لأن يجسِّد ما يراه عبر ناظور رؤيته للحياة ؛ وتبقى الصور فِخاخ تتحيَّن قدوم مَن تورَّط في مِضمار الكتابةِ التي أرادها هوايةً فاستحالت حِرفة لا قدرة له على التنصّل من أسارها ، ولا الانفلات من ربقتها ؛ وأبقى أنا أسير كَمن دوَّت في رأسه دوّامة من غيوم الخلق اسكب ما في الدواخل من اعتلاجات تداخلت ، وتماهت ، وتمظهرت بصيغة نصوص امتزج فيها الواقع بالمتخيل ، والحكي بالشعري ؛ والصحو بالجنون ؛ ووجدتني أقول .....وأقول ..... وأقول ..... ؛ حتى لُيقال عنّي : هذا سارد أغوته فَتاةُ الكلمة (الكلمات قواقع مليئة بالضجيج – يقول باشلار) ، وسَحرَه روضُ الشعر (الشعر الذي يزلزل الواقع – يقول أدونيس) ، وأطاحت به أرائجُ الهيام باللغة (اللغة التي هي أمي في الإغداق – أقول أنا) .

ويبقى المكان مُلهماً للكثير ممَّن ولَجَ نفقَ البوح وغاب في متواليات نيلِ بصمةٍ من بصمات الاكتشاف ، تيهاً في غابات البحث عن الجمال .. مكان هو في الأحرى ذاكرة متوهجة وإن بدت ساكنة ، كينونة خازنة وإن ظهرت كتلٌ دارس .. يبقى المكان مؤجِّجاً فاعلاً للصفحات المنسية من ذاكرة الوجود ، وخيرَ مُحدِّثٍ للقادم الباحث عن جذور الرغبة .

والصحراء التي ظلت هامشية لدى الباحث في أبجدية المكان كونها خارطة مهجورة تغري ولا تثير تركت نفسها بِكراً على مرِّ الأزمنة وتعاقبات العصور . وظل الذين يضربون في براريها رُحَّلاً أو باستقرار مؤقت يتناسلون حكاياتهم شفاهياً فيترسخ بعضٌ ويموت بعض .. استمرت الصحراء تندب يفاعتها وهي تعيش الرخاء المطري والفصول الهاتفة بالبناعة والفيوض في ربيعات راقصة على أنغام الرخاء الطبيعي الجذِل مثلما تلفّ وجهَها اتقاءً لرعونة فصول حمقى يوم ترشقها بدوّارات الرمال وتملأ فضاءها بدوّامات صوتية بمثابة أرجوزةِ رعب أو أهزوجةِ جنون ... كانت الصحراء لي _ أنا الذي أقف دوماً على مرمى نظر – كوني أعيش في مدينة تمد يداً للماء (حيث الفرات يدخلها زائراً أبدياً) ويداً للصحراء (المتكيننة غريمة أزلية تناهض عشق النهر) مَحط رغبةٍ في محاورتها لما كانت تلوّح به إليَّ ، ومثار انتباه لاسيما وذاكرتي الطفولية تختزن صورَ ذوي البشرة الليمونية ، أولئك أصحاب الوجوه الحادة باللحى المثلثة النافرة من ذقونهم والشوارب الجافة المُحناة بصبغة التبغ الرديء الذي تمتصه شفاهُهم وتستقبلها قصباتُهم الهوائية لتودعها في بنوك رئاتهم صانعةً أرصدة من فحيح أو خشخشة لا تنتهي .. تختزن ذاكرتي البدويات وهن يمرِقن في السوق المسقَّف تُبرقع وجوهَهن خمائر سود أستطيع حين يخرجن إلى ضوء الشمس من مشاهدة ملامحهن من وراء الخمار بعيون لها حدقات سود ورموش نافرة يجاهر بها الكحل الأسود الجامح فيما القلائد الذهبية من النوع الرديء الذي يخدعهن به صاغة السوق أو هنَّ يبتعنها جراء رخصِ أسعارِها ... ذاكرتي تختزن هياكل الجِّمال ، تلك المخلوقات الضخمة التي تثير في دواخلنا الخوف ونحن نقطع السوق باتجاه (سينما الشعب) في خمسينات وستينات القرن العشرين لمعرفة فيلم اليوم الذي سيُعرض وهي مُقعية تجترّ زبداً أبيض ، وتتابعنا بعيون سود وسيعة حتى ونحن

نجتازها تروح تلوي أعناقها الطويلة كما لو كانت تسائلُنا عن طريق نسلكه ووجهةٍ سنتجه صوبها .. ولأن صحراءنا الغربية تختلف عن صحارى الكرة الأرضية كونها تفتقر إلى الواحات أو تخلو منها فإنَّ انتباهي الذي ينشد إليها كثيراً ما فتُر بهمسي في إذن رغبتها أنَّ الكتابة عنها قد يغدو من نافلة الهباء ، أو هو التطاول عليها بالكَذب عنها .. لذلك كان خلقي السردي فيها حذِراً ، وتدويني عنها لا يخرج إلا من خلال التجربة الصادقة .. أي أنني لم أهرب إلى الخيال الكاذب لأصنع قصصاً لا أساس لوجودها في المحيط الصحراوي ، ولم أتوخَ إنتاجاً لأقول – أو ليقال – أنها تجربة فريدة غير مسبوقة جرت في مشغلي السردي ..

كل ذلك حصل في العام 1993 حين انتهيت من كتابة مجموعة (مدينة الحجر) القصصية ذات الأجواء الريفية تحديداً فقررت الشروع بالكتابة عن الصحراء .. وكان أن أنتجت عدداً من القصص لعلَّ منها (فم الصحراء الناده) وقصص (أيقونات صحراوية) .. ثم توقف استمرار المشروع عند مغادرتي العراق صوب اليمن لأكثر من ثلاثة أعوام (حدث ذلك في العام 1994 وعودتي نهاية العام 1997) – إذ توفرت ظروف الكتابة عن تجربة مماثلة لطبيعة الصحراء العراقية واقصد بها الصحراء الليبية التي تختلف هذه المرة عن الصحراء العراقية باحتضانها واحات متعددة تضم في ثنايا ذاكرتها الحكايات الوفيرة والأحاديث الكثيرة ..

في ليبيا كتبت القصص القصيرة جداً (التي ستضمها هذه المجموعة بعد أكثر من عَقد من الأعوام) والنصوص المفتوحة (التي ضمها كتاب الرؤى والأمكنة الذي صدر هذا العام 2010) كانت فيها الصحراء رافعة هوية المكان ، وباعثة رغبة الكتابة عمَّن يشغل المكان . وسيجد القارىء في هذه النصوص مفردات لأسماء متداولة في الصحراء الليبية لشخوص مثل (امبيّة) ، وأشياء مثل (ترفاس ، وهو الكمأ) ، و (الكرو ، وهو الهاون الذي تُطحن فيه حبوب البن والبهارات)، وأماكن مثل (القارّة ، وهي التل المرتفع) و(المربوعة ، وهي غرفة الاستقبال) و (الماجل ، وهو حوض اصطناعي يُجمع فيه ماء المطر أو يختزن فيه الماء المستخرج من البئر للشرب وسقي البساتين للآتيات من الأيام) .

وفي عودتي إلى العراق بعد عام 2004 عاد هاجس الكتابة عن الصحراء وفاءً لها ، وتلبيةً لندائها .. وعادت مهمة البحث عمّا ينبغي تأرخته : شخوصاً وأحداثاً / فضاءً وإفضاءً / همساً وخَلَجات ، وأنا المدفوع بهَوس القلم للتدوينِ ، وضجيجِ الذائقةِ للسكبِ أُلبّي صاغراً مرةً ومحتدماً مرّات دافع الاثنين (القلم والذائقة) لأنتج ما يتشكّل إرثاً صحراوياً للقادمات من الأيام ، والقادمين من الأجيال فكتبت ما سيجده القارىء مؤرّخاً في نهاية النصوص ، ومنشوراً في صفحات الجرائد والمجلات : العراقية والعربية .

زيـــد

قراءة

دلالات الفضاء في قصة (دفوف) (*)

السعيد موفقي / ناقد جزائري

في هذه القصة استوقفتني جملة من المحطات ، قد تبدو صورها مجرد توصيف لأحداث وقعت أو من وحي الخيال ، غير أنّ الكاتب أدرك منذ البداية على أن تكون صورة الأشياء مبعثرة و مشتتة بين فضاءات مختلفة ، يعتريها كثير من التناقض و قليل من الانسجام ، تداخلت فيه مستويات صوتية قوية و صاخبة ، اخترقت فضاء المحيط وهي تدك أرجاء الأمكنة الموزعة هنا و هناك ، بدت المناسبة سعيدة ، انشغال بفوضى الحياة مع استغراق زمني لا محدود ، هكذا أراد الكاتب أن تكون بداية الحدث ،((كان الفضاء الماثل يقطف الزغاريد المتصاعدة أعلى حوش الشيخ " مفتاح " عندما مرَّت النسوة الثلاث يخترقنَ حشد النخيل ويمزقّنَ الظلال الرطيبة .)) ، تزاحمت في هذا الاتجاه أجزاء أخرى من مشاهد الانطلاق و بعث الفرحة و الانشراح في فضاء الأشياء التي عمّها ضباب كثيف ، رمز إليه الكاتب بحركة الأقدام الفوضوية لتعطي صبغة طبيعية لعملية الانتقال بين الشخوص و عناصر الطبيعة المتنوعة و المتناقضة في بنيتها ، اللون و الحركة ، والشكل و خطوط العرض الغير متناسقة فيما بينها ، في الحقيقة لم يغفل الكاتب رسم الخلفية الحقيقية لبساطة الحياة في هذا الحيز المكاني المحتشد ، فرضته جملة من الضروريات الفطرية التي تحرك النفس ، ارتفاعا و نزولا ، استقرارا و تغيرا ، أشار الكاتب إلى قرائن توحي بهذا الاستمرار و التغيّر و ترك تفصيلات الأحداث لمتغيرات أخرى يستكشفها القارئ مرحلة مرحلة و دون عناء كما يبدو ذلك في هذا المقطع المركَّب من أجزاء غير مكتملة في بنائها و مرتكزاتها ((الدرب الذي يتلقَّف أقدامهن الحثيثة يمر جنبَ (الماجل) الدائري الوسيع العائد لمزرعة مؤذن الجامع القريب ، ويقربهنَّ من نظرات الرجال المحتفين داخل الخيمة المستطيلة .))، لم يشأ الكاتب مغادرة هذا الفضاء دون تمهيد لما لم يتوقعه القارئ ، قد تبدو البداية من ها هنا عندما يقحم الكاتب تصوره للأشياء مستفزا القارئ في كثير من الأمور التي غدت غامضة منذ عملية الانتقال بين الأشياء و تداخل الأصوات المنبعثة من حشود تراكمت من هنا و هناك نحو اتجاه واحد ، و اللاشعور لم يتغير بما أنّ بداية الحدث ارتبطت بفكرة الوصول إلى غاية سار في اتجاهها الجميع و رسم أمانيه و علَّق كلَّ مكوناته قصد التغيير و التجديد ، ترك الكاتب أمام القارئ هذا المدخل كإحالة لمستجدات تساعده على مواصلة السير و البحث باستمرار ، الشكل الجديد الذي بدأ به في هذا الموقف اختلاقه حوارا بين شخصيات قد تبدو عارضة و لكنها محفزات أخرى للقارئ ، و أجزاء نامية لبقية مقاطع الصورة التي بدت مشوهة أو ناقصة ، ملامح الفرحة ، تداخل الأصوات بفوضى الألوان و الصخب و الهرج و عبثية كل ما يلامس المشاعر أو الرؤية ((قالت الأولى : " لابدَّ أنهنَّ أكملنَ مراسيم تحنية العروس ." وشدّت على عباءتها البنفسجية المطعّمة بدوائر لونية نافرة .. وافقتها المرأة المحاذية بكلمة : " ربّما " !)) و لحد الآن لم تظهر الصور متوازنة بما أنّ النسوة لوحدهن صنعن هذا الانتقال و كثافة المشهد بدت طبيعية مألوفة على الرغم من أنّ طبيعة التفاعل تكون عادة بمختلف العناصر و لا يحركها طرف واحد ، غير أنّ الكاتب تعمّد ذلك و ترك الأحداث طبيعية تتخذ سبيلها من تلقاء نفسها دون توجيه

من الكاتب نفسه ، و لكي تصبغ الحركة بشيء من العفوية و الفطرة في تلازم الأشياء و انسجامها و اتساقها في حدود الصورة التي رسمها منذ البداية ((.. ولم تفعل شيئاً لعباءتها السوداء المزروعة بقطيع فراشات برتقالية مبعثرة ، بينما صمتت الثالثة التي جاء سيرها لاحقاً .. اكتفت بأنْ تطلّعت يميناً فرأت من بين كثافةٍ رجالية شباباً يحملون دفوفاً ينقرونها بضربات تتوافق وترجيعات الصدى ..)) وكان لابد من الاستمرار في هذا الاتجاه بما أنّ ثقافة المحيط تفرض عليه ألا يتعدى مجالَه وعرفَه ولكي تبقى مصداقية التنقل و التغير و الحركة في وتيرة واحدة وعلى نمط بعيداً عن التكلّف و الصنعة ، فكل المثيرات التي اختارها الكاتب ليغذي بها مجال القصة الواسعة و الحقيقة طبيعة الموضوع في حد ذاته لا يمكن أن يتنفس في هذه الحدود ، فاختصر الطريق إلى إشارات و رموز تكفي لاستحضار كلّ الأفكار و التجارب التي من شأنها جعل القارئ يقترب من الصورة الحقيقية للمشهد حدث أو لم يحدث و يظل سعيه مشدودا بفضول شديد للنهاية التي من الممكن أن تكون مفاجئة ، فالحديث الذي دار بين النسوة ، شمل تفسيرا قويا لعملية التفجير المبكّر لكل التوقعات والمكبوتات ، و ظل الحلم هو الهاجس لهنّ ، ترتفع محاولاتهن للتغيير إلى أكثر من مجال ، وتمركزت جهودهن في بساطة حديث النسوان بأصوات مرتفعة أو مكتومة أو بتمتمات كما عبّر عن ذلك الكاتب ((تمتمت : " متى أسمع وأشهد كل هذا يا مبروكة ؟! " (وكانت مبروكة على رفيف تهافت اللحظات تنظر في مرآة دائرية صغيرة أخذتها خِلسةً من صندوق أمّها الخشبي ،)) ، و تلاحظ التزام الكاتب باستعمال لفظة " فضاء " ربما لدلالتها القوية أو احتمالها لأكثر من معنى في هذا السياق النفسي الممتزج بنشاطاته الاجتماعية كما بدا لنا في مستويات الحديث ((خارجةً إلى فضاء الحوش حيث أصوات الدفوف نائية لا تصلها .. راحت تُترجم ابتداءات الغضون أسفل جفنيها الهابطين على وجنتيها .. بأصابع كفّها الطليقة تجوس انحدار الرقبة باتجاه النحر متذكّرةً " عصرانة " التي توازيها العمر))، ثم ينشغل الكاتب بجوانب ذات دلالات جسمية و حسية مقصودة ، الاهتمام بالألوان الذي أشار إليه في البداية لم يكن عبثا حيث يساعد على بعث صور الأشياء في تفاعلها و تمركزها المتغير من وضعية إلى أخرى ، الإكثار من حديث الفضوليات و تمسكهنّ بتفاصيل ليست جديدة ، تساعدهن على وضع كل الحدود التي ورثنها أو اكتسبنها بفعل التغيرات الجديدة و الاحتكاك الحادث بفعل المتغيرات القوية ، سواء كانت وافدة أو محلية ((.. تخالها كاملة الزهو / غاطسةً برفْل الرداء الحريري / مثقلةً بلميع المصوغات الباهرة خضيبةَ الكفين والقدمين ؛ ثم الجدائل) .))، و استمرار الاحتكاك بين مختلف المؤثرات الذي نجم عن اجتماع هؤلاء النسوة لم يكن عشوائيا ، إنّما قصد به الكاتب رسم تطور الحدود الثقافية لجملة من المعتقدات التي تمارس في محيط مشبَّع بمختلف الأفكار لا تمييز فيها بين الدخيل أو الأصيل كما أشار إلى ذلك الكاتب عندما ترك الحديث يأخذ مجراه بينهنّ و لم يعقّب ، و تركه ينتهي بعفوية كما اختارهن ، هكذا بدت الصورة التي اعتبرها الكاتب صالحة لمعالجة ((صخبُ الأكفِّ والحركة الجيّاشة داخل الفناء الضاج تلقّفت النسوة الثلاث وفرقتهنَّ .)) بما يمكن تفسير هذا التقرب الذي أحدثته النسوة في نشوة عارمة ، و قد أخذن أكبر حظ في عملية رصد قمة السعادة المنشودة في هذا التمدد الزمني الغارق في متاهات الحياة المنعكف على أسرار كثيرة ، كثير منها مجهول ، لا يمكن تفسيره إلا برغبة جامحة في مستويات الذات العالقة في حصارها الذي صنعته بنفسها و ظلت تدور في حدود كثيرة غير منتهية ((الأولى : احتضنت أمّ العروس بعدما دفعها الفضول للبحث عنها وسط الجموع تُمطرها بالقُبل .. الثانية : حاولت الوصول لأداء نفس الدور لكنّها عجزت ؛ مأخوذةً بهدير أجساد الفتيات الراقصات ، والمصفّقات ، والمزغردات ؛ والغارقات في غَمَر التطلّع ورسم الأماني . فدفعها الهدير بعيداً .. الثالثة : فضّلت الجلوس قريباً من العروس تتفرّس بها ثم تتبادل الدور تخيلاً مع " مبروكة " الابنة بذات الرداء وهاته المصوغات وذلك الخضاب ؛ لكنَّ مبروكة أجمل وأرق مقارنةً .. عادت التمتمة تتهالك على شفتي الأم : " لماذا لا يطرق الحظ بابها إذاً ؟! ... ابتسمت " عصرانة " لها فتداركت المرأة الموقف شاعرةً أنها ضُبِطَتْ من قِبل الفتاة فمدّت كفّها للمصافحة .. إلاّ أنَّ طراوة الحنّاء حالت دونَ الأداء ، فضحكت العروس وضاع

صوت خجل المرأة في صخب الأكف .)) ، هل هو البحث عن الحقيقة ، من أي نوع هي ؟ لابد من أنّ الفكرة يشوبها كثير من الغموض الذي لم تبديه إحداهن للأخرى و كيف يستمر الصراع ، أو ينتهي و الأحلام قد تراكمت بشكل فوضوي ، تقديراته الحقيقة لم تلامس الطبيعة الحقيقة فيما ترغب فيه الذات ، إنّه الانتقال إلى الجانب الآخر من حركية الأشياء ، و في الحقيقة لم تكن المسألة مجرد ظاهرة عرس بقدر ما كانت نية الكاتب في الوصول بالقارئ إلى مختلف العناصر التي يتعامل بها في حياته ، في مختلف المناسبات ، و في أبعادها ، النفسية و الاجتماعية و حتى الفلسفية (((بينما ضاعت مبروكة في زحام أسئلة آلت إلى سؤالٍ واحدٍ جامع يقول : " متى .. متى ؟! " مستعرضةً وجوهاً مُحتملة للاقتران كثيراً تخيّلتهم ولم تصطد أحداً . عادت تجوس تضاريس الوجه والقَسمات ؛ نادبةً الآمال والرجاءات أنْ : تعالي .) .. وسمعت المرأة من بين حمّى الضجيج صوتاً : " تعالي ! " ... نهضت لتواجه صاحبتيها يومئنَ ويخرجنَ . راحت تتعقبهنَّ خروجاً باتجاه حشد النخيل الذي استبدلَ ضلاله بالظلام ، مُجترّةً مَذاقاً استحال مُرّاً ، ومتذكرةً بنتاً غدت خنجراً ينخز خاصرة الذاكرة ويوغل في ثنايا الروح .))

النهاية لم تكن مجرد تنفس ، لعل الكاتب تعمد ترك أسباب النهاية و مبرراتها لأسباب موضوعية، لأنّ الإنسان جملة من التأثرات لا تحركها إلا مثيرات طبيعية وواقعية و هي منسجمة بين الجسد و النفس و الروح .

(*) نشرت القراءة في الكتاب الورقي الذي أصدره موقع (القصة العربية) الإلكتروني .

القسم الأول

قطرة حمراء فاقعة

تحت شجرة الأكاسيا الظليلة ، وسط ذلك الضحى الخريفي يقف " علي بابا" . تمر التي يسميها حبيبة .. تمر من على قرب ولا تنظر إليه / كأنها لا تراه فيعتصر قلبه .. يعتصر . ومن مفازات الدواخل ينطلق نداء الترجّي / تعلو صيحة الخنوع : آه يا طالبات المدارس .. آه تتعثر على مسارات الروح المليء بالمتاهات . تموت على تخوم اللسان . بيدّ أنَّ العين تبقى تتابع التي يسميها حبيبة .. أراه من بعيد فأقترب منه . دنوّي يُعري أوراق تلعثمه . أكتشف الارتعاش فاضحاً كذبة اتّزان يحاول اضهاره لي .. أقف لأكلّمه فلا أجد سوى عينين تمتلئان حيرةً وارتباكاً ؛ يرحلان باتجاه الدرب المنتهي بانعطافة سريعةً التهمت خاطفة القلب .. لم يتبق منها غير طيف حاول هو جاهداً لم أشتاته فلم يقدر .. أعود إلى الأيام الراحلة / البعيدة أحثُّ بقاياها على العودة لأرى تلك التي كتبت لها الكثير، الكثير ؛ وأجابتني بالصدود ، الصدود أعود لأتذكّر فحوى ما كتبت ؛ كلمات ما زال بعضها يشعُّ وهيجاً : (لأنني أحبك بشراهة سآكل أمَّكِ يا غزالة) و (لماذا كلما اقتربت من طبيخة الباميا شممتُ رائحة قميصكِ المكرمش ؟) و (آه لو أنني انقلبتُ مديراً لمدرستك لألغيتُ كتاب التاريخ وجعلتُ الدروس كلها جغرافية) .. ومن نافذة ذلك البيت المتعالي بطوابقه الثلاثة ألمحها ، فتنفتح " روما " إزائي على مصراعيها . أهمُّ بالدخول راجلاً / منتصراً . غير أنّي أُفاجأ برسائلي تُرمى قصاصات / تنهال رذاذاً مدفوعاً بهواء ضحكتها الماكرة .. أندفع صارخاً كالمعتوه : " ماذا تفعلين يا حليمة ؟ ! .. ماذا تفعلين ؟ . هذا قلبي الذي ترمين وتنثرين !! .. وحين أفتح صدري كي ما أتحققّ لم أجده هناك .. هناك فقط ألمس جمرةً فاحمة أعطتني صدق اليقين . من يومها وأنا أعيش بلا قلب بينما صرتُ أبصرها من بعيد تمر .. أدنو فألتقط على ثرى السهوب القمحية أسفل عنقها قلباً ذهبياً معلّقاً بسلسلة صفراء مزَّقَ شغافه وأخترقه سهمٌ تشبّثت على حافة رأسه قطرةٌ حمراء فاقعة .... وأرى إلى " علي بابا " وقد داهمته انحناءة أظهرته أكبرَ عمراً .. أقتربُ منه ؛ وفي أذنه أهمس : " إيّاكَ .. إياكَ أن تكتب لها ." . لم أسمع له ردّاً سوى أنّ عينيه اللتين طفحتا بذبول غريب كشفتا تأخرَ نصيحتي ، لأنّني ما أنْ خطوت قليلاً حتى فوجئتُ بقصاصات ورديةٍ ممزقة ؛ مرّغتها باستهتار مقصود تعفّرات كتوف رملية موحلة .

زلّة خريف 1999

على إيقاع الرمـل

(1) وابل من جفاء

هنالك .. الأرضُ خلاء ، والمدى فسيح ... الأشياءُ يشرذمها لهاثٌ مائي حثيث يُعرقل تشكيل مشهد يعطيه تفسيراً لما يجري أمامه . غير أنَّ شتات الذاكرة المبعثرة قربّت لديه ما سبق ومر فتذكرّ أنه الآن وحيد يعوم وجوده في برّية جرداء، وإنهم عندما خلّفوه ساعة الهزيع لم يتركوا له سوى قرارهم التخلّي عنه عنوةً لأسباب ترتأيها القبيلة ، جازمةً واضعين في دواخلهم فحوى النهايات المحتمة .. قال لهم : قراراتكم ظالمة وأحكامكم وليدة النميمة الجائرة، والأهواء المتسرعة فلم يتلّق غير (قربة) ماء ناضح وحفنة حبّات تمر وأمتار من مصير يغمره المجهول ، ثم سماع نهائي برحيل النجع التام عند مكان رميه(لحمةٌ أمسكتها كف / قطعتها سكينٌ / شيعتها عين ، مرمية بلا اكتراث) أحزنه تخليهم عنه وأرهقته كلمات نفيه ـ تركوه ثخين الجراح ، كثيف الطعنات ـ وضعوا في حسبانهم طمع الوحوش الشرسة .. وأنبت في حسبانه ترصدات الذئاب المتحينة خلف التلال المبعثرة تنتظر سدول الظلام ..

كان عليه أن يتدارس الأمر ويُمحِّص الموقف عندما أخبرته المسوح الأرضية بزحوف الرمالِ التي سرعان ما استحالت سخاماً أسود ... كاد أن ينده بالشمس الاّ تخذله فترميه في سَدف المجهول والعَتم .. غير أن إيقاف حركة الزمن يُعد من الأمنيات البلهاء ؛ والنقاط الفسفورية الحمر شرعت تبث ضوءها الشهواني.

هم بالنهوض فأخبره الثرى بالخيبة؛ ويتصمغه وتشبثه ، لكن الأعواد المتكسرة رآها حوله فجمعها مطمئناً إلى علبة كبريت تركوها له ودعوه للاستعانة بها عند الحاجة (ثمة العيون الفسفورية تتناسل وتزداد . تضاجعُها لهفةُ العتمة وغيابُ القمر ... تذكَّر أن زوجته ولديه أخذوهم منه قبل أيام ، وتم للمخططين ما أرادوا بتحقيق النأي ..نظر بعيداً باتجاه الاستدارات الحمر فأنتشلته من ثقل الموقف صرخات طفله الصغير وهو يتشبث بحزامه ويتوسل إليهم ألاّ يحرمونه من الأب.) مدَّ كفاً إلى الخِرج الذي تسلَّمه منهم وطفقت أصابعه تبحث عن علبة الكبريت بإرتعاشة تنم عن خشية أن لا يجدها ... وإذ استقرت بين الأصابع ساوره الارتياح وأيقن أنْ النار التي سيوقد ستعينه على بقاء الكائنات العدوانية المتحينة بعيدةً ... أخرج العلبة وفتحها تاركاً للسبّابة والإبهام مهمة مسك عود بغية البدء بالاشتعال .. غير أنْ الإصبعين تاها بين حبات رمل كانت تملأ حوض العلبة الداخلي .. غامت عيناه وتضببتا .. ما ظن الغدر وصل لهذا التمادي .. يلاحقونه بعدوانيتهم حتى وهم يخلِّفونه ويبتعدون ... عادت إليه صورة زوجته وولديه .. خالهم أسرى معذبين لديهم .. قال: ليس من الرجولة القناعة بوجود أحبائي هكذا ... عندها لملم الجهد وأعتصر الكيان ؛ وبكل ما تجمعت في حنجرته من طاقة فجَّر صرخةً أذهلت الليلَ والهواء ومُعتلي التلال ... مزَّق مثوله للثرى واستسلامه للتصمّغ فنهض... تطلع بعينين حادتين سرعان ما شعر بهما تطلقان إشعاعات فسفورية متوهجة .. تقدم باتجاه تجمعات الذئاب المرابطة هناك / دخل بينها ... وبلحظات كان يقودها متتبعاً رائحة آثار غائصة في ظلمات الصحراء العصية .

(2) سـادراً في النأي

قال لها :-

. الأفضل أن أتوارى عن العيون لأغيِّب الألسن.

وغاب ..ضارباً باتجاه النأي.. الليالي خارطة المسير ، استدلالاً بالنجوم / استعانة بركام الأيام الخوالي وأحاديث خزينة المعارف.. أما النهارات فللرقاد تحت ظل غزارة أغصان شجرة طلح أو إتكاء على كتوف أفياءِ أخاديد ولدتها تحركات الرياح ، اتِّقاءاً لحمأ الصحراء لهيبة الرمال واكتساباً لأمان مفقود تشرذمه الساعات العتيمة .. وغير ذلك صور للأهل تشحذها الذاكرة وتلمها رغبة العودة للقاء الحميم.

الأيام تتوالى .. وكلُّ سعةٍ زمنيةٍ تنأى به صوبَ فسحةٍ مكانيةٍ تقرِّبه من هناءة البال ، تُبعده عن تداول الأفواه (لم يترك له الآخرون ما يعينهم على تقديم مبررات الإقناع .. نبرات كلامه تلمسها تضيع وسط تلاطم اتهاماتهم .. سعى محتدماً وكان يروم عرض إثباتات فشلهم في إبقاء النجع خالياً من رائحة الهتك فما أعاروا تنصتاً ، حتى فوجئوا أحدى الصباحات بركن من كبريائهم يستحيل طعماً عذباً لنار غادرة .. وبدلا من أن يتعظوا بالندم انطلقوا يتهمونه بأداء الفعل /ضامرين له الأذى .. وهو بين الدفاع والإدانة يذرف ألم التأسي عليهم طامراً حزناً يحز القلب ويجرحه) يلتقي وجوها غير التي ألِفَها .. يعايشها بحميمية يخلفها حسن الاستقبال ومتطلبات الضرورة تأتي بها كفّ الأقدار فيستقبلها قانعاً بحكمتها ، ما تلبث أن تغيّبها الحاجة . أنهم رعاة لا يعرفون الاستقرار، تسحبهم جمالهم المتناثرة وتنده بهم فيوض الكلأ المبعثر . ينهل منهم / يفيض إليهم .. سمع ما أذهله وحكى بما اتفقوا عليه .. لم يستغربوا ما حلّ به .. وكانوا يطأطون الرؤوس توافقا مع ما يقول .. وفي الختام يصرحون : ما رأيت الأ اليسير/ يبدو أنك مازلت غضاً .. أمامك القابلات من المفاجئات والإخفاقات .. يصرف معهم ليال ، ثم بمرارة يودعهم / بشجن يشدّون على يده .. ومن جديد يتحرك ، ضارباً باتجاه الأرق ، قاطعاً المسافات . يراكم الأيام فيضيع من بين أصابعه العد .. يحسب المفازات والنجوم ، وبالتالي يفتقد كم من الضياع صرف (أما هي / الزوجة التي اقتنعت بقرار فاه به ، واطمأنت لأخبار شرعت تصلها أثر رحيله فقد ساورتها الخشية ، لاسيما وما يصلها من أخباره المحمولة على أجنحة التخفي طفقت تشح .

الوجوه تطل وتغيب / تتبدل الأماكن .. وهو بين هذه وتلك كان يغوص رويدا ، رويدا نحو قرار لا يعرف منتهاه مردداً ما سبق وقال:-

. الأفضل أن أتوارى عن العيون لأغيِّب الألسن .

(3) مواجيد الفقـد

مسترجعاً تواليات الفجائع أكبرَ على قلبه قدرة التحمّل وصرف الأيام دونما انكفاء أو ضعف ..كان الصبر رديف السلوك ، والشجاعة دماً يتَّخذ شتى مسالك الروح ، لكنَّ الدروب تترى ، والصحراء بلا انتهاء .. هو الدليل والقافلة / وحيداً يمسك خطى الدرب .. لا رفيق يؤنس ولا حديث يبدد شساعةَ القفار، حتى الصور

الخزينة طفقت تبهت ، بل تكاد تمحى .. الرمال تشكل امتداداتها والتلال تضأل .. لم يتبق أمامه غير خلاء ، وتيه ، وافق ناء ، وشمس لهيبة أجهزت على بقايا ماء ناضح عطَّلت مهمّة القربة التي خمّن أن لا ضرورة لها فرماها .. مستثقلاً أشياء أرهقت كاهلهُ اتّخذ قرار التخلي .. لم يعد لسكِّين يستعين بها في قطع أغصان أو مواجهة طارئ أهمية/ تركها . كذلك فعلَ مع خِرجٍ يحمله بما يحتوي .. فقط العصا ارتئاها عوناً يقلل من ثقل الجسد . رغم نحافته . على الساقين اللتين تقرَّحت قدماهما الحافيتان بعدما تهرأ النعلان وتقطعا ، وابتلعتهما رخاوة رمال مديدة .. كان عليه أن يجتاز المتبقّي بعد ما أحرق المفازات وصولاً لواحة الخلاص المنشود هل يصل ؟ . (كان سمِع بها : أرض خضراء يغمر سواقيها دفيق ماء عذب تغدقه عيون ناهلة ... في السماء شمس ضحى متواصلة توشّمها كالشذر طيور لميعة / غرّيدة .. حتى الهواءُ مفعم بشذا لم يؤلف .. ذلك ما حفَّز لديه الرغبة في الوصول .. حسبه العالم الذي يبحث ، والأرض التي يحلم بعيداً عن تجني الأهل / انفضاضاً من سيل المكائد).

انطلق يحثُّ القدمين سعياً .غير أن المتبقي عسير . هكذا سمع . والهدف ناء والصحراء .. الصحراء لما تزل بلا حدود.. مع ذلك ظل الأمل حادياً للإصرار/ مساوراً لرغبة الإدراك ...استمر هذا الزمن يسير حددته القدرة الجسدية المتبقية ..

وإذ شرع الإنهاك والعطش يدبان خلل الأوصال انبثقت حالة شك دعمتها آثار لأناس سبقوه رأى قِرَب ماء جافة / متيبسة طمرتها الرمال .. جلود حيوانية حفرت عليها رسوم وإشارات لم يفقهها بادئ الأمر (ثمةَ من حفرها بعد انكفاء ونهاية محتمة) رسوم خِراف نافقة / جِمال معقورة / صقور حادة المناقير ، هائلة الأجنحة / سماء ملوثة / أقمار ممزقة .. ثم هياكل عظمية بشرية أفزعه منظرها ... ساده يقين إنه سلك درباً أقرب إلى التهلكة .

لم يلم نفسه .. ولم يأسف ، فقد كان الطريق الوحيد الذي عليه أن يقرر كدرب خلاص حتى وإن لم يدرك منتهاه .. ترك ما رأى واستعان بما لديه فأندفع يواصل مرصوداً بالتعثر . بفخاخ الأرض . بدهاء الشمس التي باتت تغدق على الرمال حرارة نارية ألهبتها وجعلتها فرناً أرضياً تتوهج على ذرّاتها الأشياء ، مذيباً الهواء الملامس ، محيلاً إياه سراباً مائياً كاذباً .. أعلاها شاهد نسوراً فرادى تحوم .. كانت الشفتان تشققتا ، واللسان جف .. هاجمت العينين الحسيرتين حزمٌ ضوئية / حرارية نزلت فتكاً بالحدقتين فتهاوى الجسد المرهق بالتأرجح والتشبث غير المجديين استقبلته الرمال السخينة .. غدا يترمّض فيما عدد النسور المحومة يتفاقم متَّخذة دائرة صارت تضيق فوقه .. فقط استجمع قواه ووهبها للعينين بغية النظر فسقط في هول مفاجأة مُطبِقة شاهد أهالي النجع يحتشدون عند تلّة موارية ، يتطلَّعون بتشفٍّ وانشراح ... تتبعت عيناه الهياكل الشاخصة بينهم .. كان هناك حصانُه ولم تكن هناك زوجتُه وولداه .. لحظتها تخلَّت عيناه عن دمعتين هماً آخر ما احتفظت بهما ، شوَّهتا إزاءه الأشياء ثم نقلتاه إلى عالم بعيد .

عندما أفاق للمرة الأخيرة شعر بمخالب تنغرز حافرةً ثقوباً في صدره ؛ وبضوء الشمس يُحجَب ، وهواء أقل لفحاً يمس وجهه .. فيما همهمات بشرية متهافتة مافتِئَتْ تتفاقم وآلات حادة كالسكاكين تنزل بأعضائه تمزيقاً ...

زلة – ليبيا 1999/09/19

انشطارات المباغتة والتجنّي

(1) انتظار قاتل

.. وامتدّت أناملُ الرمال طحينيةً تمسُ هامتَهُ الدكينة بينما جلُّ كيانه غميرُ الذرّات اللميعة . تهمي عليه الشمس لفحَها ، مستقياً من الأديم الرخو صهداً يقرّبه من حياة النَيل إعلانا للوجود والحيازة المبتغاة.. متروكٌ منذ عقود. خلعوا عنه الأستار وأسكنوه حفرةً يمارس العُريَ القادم ؛ مولينَ له مهمّة تحقيق فعلٍ أساسُه الغواية وخاتمتُه الغدر المميت / رقصاً على صرخات ألم الضحيّة / ارتواء بدفق نجيع القرمز الفوّار.. (انّه يتربَّص الآن .. ثمّة حركة كالقفز أو ارتجاجٌ كوقعِ أقدامٍ تقترب ... من يكون ؟)

بين حين وحين ..

بين عام وأعوام ، استمر يسمع أشباها له يُعلنون زغاريدهم القاتلة ؛ وهو بين الانتظار والانتحار يتحيّن قدوم الآتي ، كاتما الأنفاس / متظاهرا بهمود الجمادات الأزلية . تسفُّ الرمال على هامته ثم تنزلق فتأتي رمالٌ بعدها تطمره جرّاء السكون الطارىء للريح .

سمع تبعثرَ خُطى يدنو من دائرة انتظاره فاستدعى تجميد الأنفاس .. ضربات عصا على الرمل تتوافق ونبرات الهش .. همهمةُ قطيع شياهٍ تقترب . ما تلبث أن تنحرف مبتعدةً . ليست سوى قدمان بشريتان صغيرتان ظلّتا ترسمان آثارا على ملاسة الاستقرار الرملي .. القدمان لصبيّة لم تحسب لمفاجأة خبيئة ستقع بعد حين ؛ ولم تقدّر شيئا سيحصل وإنْ بدا المكان غريبا عليها ؛ وإنْ بدت – هي– منبتاً للبراءة .

خطت .. ثم توقفّت جائسة بعينين متفحصتين أرضاً خلاء بقّعتها أكمّات لم يدركها أحد خلقت لديها رغبة آتية للرعي .

_ سأجيء غداً ..... قالت بلسان التمتمة .

_ بل الآن ..... صاح هو بنبرات الصمت .

_ سأجعل تحرُّكي بمكانٍ لا مسبوق لغيري من البنات الراعيات .

كانت على وشك أن تبصم إبتداءات الرؤية وتطلق استهلالات الحلم المنتظر عندما أطلق _ هو _ زغرودته الحبيسة منذ عقود ، مُحدثاً فعل الارتجاج تحتها ، مُحيلا الفضاء الرائق العذب إلى ضجيجٍ ودمٍ وأشلاء / إلى تمزّق وعيٍ وقهقهة انتصار وسط تطلّع تكوينات نصف كروية دكينة ؛ هاماتها تدثّرها الرمال بانتظار دورٍ قادمٍ / غادرٍ / فاجعٍ سيحين ...سيحين لاحقا.

(2) ذكرى هاربة

نتقافز مثلما تفعل الجداء .. نتضاحك ؛ وبالنداءات نتخاطب معفّرين بجذل الابتعاد عمقا بغية تحقيق المراد / غير آبهين بالرمال تلتهم أمشاط أقدامنا الصغيرة (ذلك التبعثر الماثل يزرعنا أثلاً متحركا وسط الأراضي الموبوءة بالمجاهيل والفقد والخطر ما وراء هاتيك الأسلاك الشائكة المضروبة سدّا ، تدعمها تقاسيم الجمجمة المصلوبة على صليب عظمي _ صورة صوتية _ تصدم أنظارنا سعيّا للتنبه والتراجع .. لكننا نواصل التحرك .) .. أكبرنا " ربيع" يسبقنا ويتوقف . يبصر عن بعد علوّا رمليا ينزّ عن الانبساط المستوي الذي تبوح استدارته بدهاء فخّي خادع.

بجذل أعوامه الثلاث عشرة يطلق هتاف الانتصار :

_ أنا هنا .. انّه هناك .

(حذّرته الجدّة من الاقتراب .. عابت عليه مشاكسته : يا ربيع ، يا جدّة لا أمان للفاشست . قلوبهم ألغام وأعصابهم شراك . لا خيار لهم سوى كرهنا ؛ لا خيار لنا الاّ تجنبهم . وهذا الذي تركوه وتأتي به . سألقيه في القمامة ان جلبته . الذي لدي يكفيني .. وتشير إلى " كرو / هاون " حديدي هو أنبوبة مغلقة الطرف تفوح من فوّهته عند الاقتراب والشم رائحة قهوة دقّت أو بذور حبّهان / هيل طحنت .)

تتفجّر خلل دواخلنا حمّى التنافس .. يتناهشنا الحسد يأخذ طور اتساع الأحداق ابتغاء اكتشاف ومضي ؛ منشغلين بتفحّص بروزات ناتئة تقرّبنا من مشارف النجاح تساوياً فيما هو يدنو / خلوّا من الخشية / بعيداً عن التهيّب .. يقعي كما لو كان يتهيأ لطبق حساء يحفّز مكنونات اللعاب تقدّمه الجدّة الرووّم .

سمعنا نناديه فأدرك أننا أفلحنا بالاكتشاف . عرفنا ذلك من يده التي رفعها ملوّحا .(كلام الجدّة يزداد حدّةً وتهجساً وارتباكاً ؛ وعيون الفاشست الذئبية _ هكذا تتذكّر _ تلاحق المقتربين ، من أهلنا بينما رجالاتهم تزرع بِذور الموت في جوف الأرض .. أنابيب وهياكل معدنية غادرة؛ غادرة .(حذّرنا أهلنا من هؤلاء الأغراب المدججّين بالإبهام والغيظ .) . لا سبيل لاتقائهم إلاّ بوسائل الإبادة المحتّمة _ هكذا رأوا / هم _ فلتكن .) .

اعتاد ربيع أن يسبقنا مزيحاً حفناتِ رملٍ تحيط النتوء الظاهر .. يمد السبابة والإبهام يسحب مسماراً امتلك خفّة رفعه وإزالته فيتحقق الفعل منتهياً بصيحة الامتلاك ، رافعاً ايّاه مثل كأسٍ نيلَ عن فوزٍ بهيج .(صاحت به الجدّة هذا الصباح : إيّاك يا ربيع ؛ إيّاك .) . لكنَّ الإصبع الممتد زاوله ارتعاشٌ جعله يصطدم بالإبهام ؛ وجعلنا لا نبصر _ نحن المنشغلين بالتفحّص _ سوى جسداً يتهاوى إلى الوراء ؛ سبقه دوي هشّم لدينا غمار الجذل ، راسماً لوحةً مغايرة لألمٍ شرع يزرع الخوف والهلع فضحته بشراتنا السمر المغبرّة ، وعيوننا التي صارت لحظةَ الوصول إليه ترى أصابع مبتورة ووجهاً مدمّى ؛ ثم أنينا مكتوما وفماً يتمتم : آ .. يا جدّتي .

(تتأمل الجدّة حفيدها اليوم فيتمثل أمامها شابّ فقد عينا وتخلّى عنوةً عن ثلاثة أصابع وجزء من راحةِ كف ؛ مع تنهدّات هي مزيج من ندمٍ دفين وغضبٍ مصاحب ، وذكرى هاربة محوّمة في فضاءات أعوام العمر الراكض .)

(3) ترفاس .. ترفاس

الرائحة الفاغمة / الغريبة والتي لم يشمّها أبداً ، أبدا .. البياض المكتسح ما حوله من جدران وسقف وأسرّة .. أمّه الواقفة بمحاذاة سرير يحتويه وقد ضاع نصف جسده تحت لحاف سميك يقيه شعوراً بالبرد . جميعاً جعلوه يطيل التطلّع خالقاً تساؤلا عن وجوده الغامض هنا ؛؛؛ صاح : أمّي . فضاع النداء تبددّا ؛ مستحيلا نظرةً حائرة حاول استبدالها بحركة استفهامية .(نبّهته الصيحات بعدم التحرّك عمقاً .. قدماه الضئيلتان ترسمان أثراً على المسوح الرملية لحظة اتجاهه صوبَ العلو النائي .. صاحوا به صارخين : لا .. لا . قد لا يكون ترفاساً ... امتدّت يدُ أمّه رقيقة / حانية تسحبه من صورة التمادي.. دموعها تسيح على الوجنتين الشاحبتين وصوت تكسّر كلمة " ولدي " تتناهى إليه صدىً تتهالك ذبذباته عند تخوم سَمعِهِ المشوّش .. الحمّى تجوب مسارب العروق ؛ وقبضة هائلة تطبق على لسانه لاغيةً مسارات النطق . (سمعهم يندهون مرتعبين " لا .. لا.. لا.." ؛؛ صحيح انّهم لن يجعلوه يفوقهم هذه المرّة ؛ وكان تصميمهم جمعَ ترفاسٍ أكثر منه ، لكن الخشية من أن يغويهم الترفاس فيجدونه ألغاما خادعة .. تلك الخشية منحتهم الحذر ؛ ولم تزده إلاّ اندفاعاً .) .. بحذر تحركت الكفُّ الحانية تمسح حبيباتِ عرقٍ ولّدها الجبين الحسير المكتَسَح بصفرة بيّنة اثر انخفاض حراري ابتدأت به أعضاؤه المبعثرة فتسربت مفردات شكر خفيضة تقدّمها الأم لرجل ذي رداء قطني أبيض ينتصب في الجانب الآخر للسرير يطمئنها مواساةً : " المكتوب يجري ؛ وما مقدّر يقع . ولكن كان عليه أن لا يشتري الخطر . ".. ما سمعته حوّلَ صوتها الوطيء تهدّجاً. (سحبته نبرات مبتورة / وجلة ، وعيون متفحصة / هلعة . الأكف الصغيرة المعفّرة بالرمل تمتد لساقيه فترتفع وقد صارت قرمزيّة يهاجمها التخثّر السريع . .. ولم يكن الذي داسته قدمه ترفاساً مطموراً سبق الترفاس الظاهر / المقصود إنما شيء يغوي كيانه ويسحبه قليلا .. ثم بين فسحة زمنية كبرق خاطف هتف مستنجدا :" أمّي .." ؛ متطلّعاً إلى صحبِهِ / ذاهلا لخديعةٍ جائرة توقّفت كل وسائل الحيلة للجمها .).. لم يسمع صوت الرجل ذا الرداء الأبيض بل وصله نحيب يعلو .. أراد أن ينطق :" أمّي . : فلم يقدر . (كانت سواعد الصحاب ونبرات همسهم المخضّب بالقلق وهي تتحاور لتقديم صورة صادقة للمشهد تتضاءل ... أحد الصحاب يفوه للآخر :" ستموت أمّه للخبر ." وآخر يقول :" هل ستعيش ؟ وكيف ؟ " . وآخر :" آآآه : ". مسحوباً سمع النحيب أشد مرارة ؛ مغموسا بمفردات صوته ، وأصابع امتدّت مرتعشة تتحسسّ ساقين خلا مكانهما فراحت تغوصُ في فراغ احتلّه نسيجُ الغطاء ، ونديفُ هواءٍ شكّلَ شيئاً ما كالتقعّر .

زلّة – ليبيا 2000

وقائع مدرسية

(1) الثعلب

لأيامٍ ظلّت الغرابة تداهم أفكار السيد المدير وتُسقطه في حيرة إنَّ ما يراه يدخل من باب عدم التصديق ، فالمماحكات والصدام اليومي المصروف مع معلّم الرسم قد توقّفَ منذ أسبوع ؛ وبدا المعلم وديعاً بحضوره المدرسة / أنيساً مع رفقائه المعلمين .. غير أنَّ الفصول التي يدخلها كانت تضجُّ بضحكات تندلع فجأةً ؛ ثم تؤول إلى الصمت .. ذلك ما أثار فضول المدير وحفّزَ حفيظته على الاكتشاف (إنّه يرتاب من الحركات الغريبة / الغامضة لهذا المعلّم .. ولشد ما كره إدارة المدرسة وتمنّى لو كان _ هو _ معلّماً بعيداً عن منغّصات الشؤون الإدارية جالبة الصداع ، وخالقة الأعداء الحاسدين .) .. استدعى العديد من التلاميذ سرّاً محاولاً فك لُغز تفجّر الضحك في فصولهم ... التلاميذ أظهروا تنكُّراً حذِراً .. ذلك ما دفعه إلى الاستعانة بكرّاسات الرسم إطّلاعاً ؛ فقد يتّضح جزءٌ من الحقيقة ؛ وقد يكتشف إهمال المعلم لواجبه عبر صرفه حصّة الدرس بالعبث واللامبالاة .. تطلَّعَ في الصفحات فوجدها تضمُّ رسوماً عديدة وجميلة ، ومتقنة ... غير أنَّ ما أثار استغرابه هي الرسوم التي جاءت ناقصة / غير مكتملة : قطّة بلا ذيل / ديك بلا عُرف / نهر بلا ماء / شمسٌ باكية / قمرٌ مقضوم ... هذا ما تركه يتّخذ قرار المتابعة إدراكاً للنتائج .

ذلك اليوم ... والمدرسة يعمُّها انهماك الطلبة والمعلمين في أنشطتهم المعهودة خرجَ .. وبخفّةِ ثعلبٍ استدار ما وراء الفصول ، سالكاً الممر الخلفي مستهدفاً الفصل الذي دخله المعلم المنشود .

ولقد ارتاح السيد المدير وهو يتطلّع من مكانٍ خفي خلال نافذة الفصل ، مُبصراً المعلم منشغلاً يرسم نموذجه ... السبّورة ملأى بصورة أرنبٍ أبيض ثلجي ؛ والتلاميذ يتابعون بشغف وتحفّزٍ حركة أنامله تمر بلمسات أخيرة تُضفي جمالاً باهراً يؤجّج الذائقة وينشر أشرعة الخيال .

مُخطىء شعر المدير بحق هذا الإنسان المُثابر . والتصرف السابق معه لم يكن له أي داعٍ ؛ لهذا سريعاً فكّر بقرار اعتذار سيقدّمه إليه بعد انتهاء حصة الدرس . وسريعاً قرر تقديم شكر مكتوب سيعمّمه على زملائه المعلمين .. كذلك خامرته نتيجة الشعور بالندم فكرة الكتابة لمديرية التعليم كي ما تقدّم علاوة سنوية لتفانيه ... لكنَّ المعلّم ما أن استدار حتّى خاطبَ التلاميذ :

_ هيّا ارسموا هذا الأرنب الجميل .. ألا ترون كم هو وديع وبريء ؟!

صاح التلاميذ وبصوتٍ واحدٍ :

_ نعم .. نعم .. ولكن أينَ أُذناه ، يا أستاذ ؟!

تابع المديرُ المعلّمَ ؛ وجده يرسم ابتسامة ماكرة نمَّ بها وجهه المُتهلل كأنّه بانتظار هذا السؤال .. تحرّكَ مُختالاً صوب باب الفصل / متطلّعاً لغرفة المدير البعيدة / متلفّتاً شمالاً ويميناً : وباحتكاك كفّين ، مع صوتٍ تمثيلي ساخر قال :

_ ألا تدرون !!! ... أكلاهما مُدير المدرسة ، يا أولاد .

زلة 1999

(2) شفرة السؤال

كبّلت المدرِّس قيود المباغتة فألجمت صوته لحظة دخول " الموجِّه " الفصل بلا سابق خبر ... تصالبت أنظار صبية الصف الأول بفضولٍ طفولي على الرجل الغريب المُهندَم ، وتسرَّبت أنظارهم إلى الحقيبة " السونسنايت " السوداء وهي تُثقل كتفه الأيمن وتترك الأيسر يعلو . (ومن صفات المدرّس الناجح ، الشخصية المتّزنة / القويمة / القادرة على درء المفاجئات وتحجيمها ، ثم تحويلها إلى عنصر النجاح في اختبار الثقة بالنفس .. وهذا ما أظهره المدرّس عندما أعطى ايعاز الـ " قيام " ، وترك للموجِّه رسم ابتسامة مصطنعة تتمازج مع كلمة " جلوس " .) .

كان الدرسُ علوماً ؛ والموضوع : " الحشرات " ؛ والفصل واحد من مستعمرات البعوض والذباب والسحالي الراقصة على إيقاع رطوبة السقف وخدوش الجدران ... أمّا ساحة المدرسة فإنموذج لمستنقعٍ أثير يعوِّض القادم من بعيد مهمّة السير في الأحياء المتزاحمة / المأسورة بالركود والزّنخ اكتشاف رداءة الخدمات .

تطلّعَ الموجّه يمسح ساحة السبّورة الملأى بالكلمات والتخطيطات المجاهدة في إظهار وجودها رسوماً لحشرات ضارّة ، مقيتة ..... وكما هو شأن الموجّهين الذين وإنْ أبدوا اعجاباً بالمُزار : بطريقةِ عرضه ، وتقديمه ، وأسلوب مناقشته لابدَّ من إيجاد ثغرة يمسكها على المدرس كي تبقى مادة " تدوينية " يتركها في " سجل زيارة المدرسين " لدى ادارة المدرسة .

وبحركة تمثيلية قاطع المدرِّس المنشغل بالمناقشة ، والعرض ،، موقفاً إيّاه .... وبدهاءٍ دفين فاه :

_ سألكم استاذُ كم المخلص ، الناجح ، الغيور عن الحشرات الضارّة ،، أنواعها وضررها ، ثم كيفية القضاء عليها والتخلّص من شرورها .... والآن أنا أسألكم : مَن منكم يذكر لي اسم حشرة نافعة ؟...

بوغتَ الطلبة بالسؤال الصادم وتشظّت المعلومات المُغتَرَفة توّاً ... سرقوا الثواني لاستذكار وتصوّر حشرة يمكن أن تقدّم نفعاً .

شرع الموجّه السائل يتفحّص الوجوه الحيرى ، والعيون التي تحرّكت تستطلع الجدران ، والسقف ، والفضاءات البعيدة .... ومن هيمنة الصمت رفع أحدهم إصبعه فتكدّر المدرس للرافع متمنيّاً أن يكون المُجيب غيره ، ذلك أنّه من أكثر الطلبة بلادةً وكسلاً .

بحنانٍ مُفتَعِلٍ أومأ له الموجّه ، فردَّ التلميذ بصوتٍ تشوبه الخشية والتردد :

_ نحلة ؛ يا أُستاذ !

_ هائل .. عظيم ... أحسنت !!.

تهللَّ وجه المدرّس بالدهشة ، وغمرت دواخل التلميذ غيوم الزهو مثلما أُسقِطَت بيد الموجّه الذي أصرَّ على الإمساك بسلبية يخصُّ بها المدرّس .... ولأنَّ الأسئلة الأكثر تعقيداً قد تُربك أذهان التلاميذ ، خصوصاً وأنّهم في أول سلّم التعلّم فقد أعاد السؤال :

_ ومّن منكم يعطيني اسم حشرة نافعة أخرى ؟

امتعضَ التلاميذ للسؤال ، وظنّوا أنَّ زميلهم قد أنقذهم من ورطةٍ كانت قيّدتهم إلى كراسيهم ، فمَن سينقذهم الآن ؟! .

ومن جديد تسلّقت عيونهم الجدران والسقف ، وشردت طيور أذهانهم تبحث عن فيوض الحل الصحيح .. وكان إنْ طرقَت الدهشة بمطارقِها على باب ذهول المدرّس ومعه التلاميذ ، ثم تجاوزتهم إلى الموجّه الذي أعلن صراحةً أنّ فارس الصف ومجتهده الأوحد هو هذا الفتى الشجاع الذي أعاد رفع إصبعه مرّةً أخرى (لقد نسي اللحظةَ غايته بهذا الصبي الذي سريعاً توالد في رأسه الجواب ، وهو مقياس _ لا يقبل الشك _ للذكاء الثاقب .) فتوجّه إليه بالكلام :

_ نعم ، يا ولدي .. قُل !

استقام التلميذ واقفاً ،،، وبشجاعة غريبة لم ينلها مطلقاً / أبداً ، من مدرّسه قبلاً أجاب :

_ نحلة أخرى ، يا أستاذ .. نحلة أخرى ....

زلة 1999

(3) ربيع سليمة

لم يكن ربيع إلاّ بديناً ،، وسنواته الثلاث عشرة تُعلن تقهقرها أمام هذه البدانة الباذخة . لكن روح الدعابة جعلت منه ندّاً بغيضاً لسليمة الجالسة على بعد أربعة كراسٍ وخمسة تلاميذ .. فما أنْ تنهض هذه الدائبة النهوض لإعطاء الإجابات لجملة الأسئلة المُلقاة من مدرس اللغة حتى يلتفت ، وبنظرة ماكرة يطلق ضحكة مكبوتة تنفر لها سليمة ، بينما تتيه عن الأستاذ الذي يستدير إلى السبورة بغية تدوين إجابة البنت الصحيحة جدّاً ... بيدَ أنَّ بوادر الامتعاض تبقى مرتسمة على وجه المُحتجّة . وبإمكان المدرس سماع هنّة طويلة ، رافضة من العينين الفتيتين مثلما يشاهد ذبول الابتسامة الساخرة على شفتي ربيع ،، فتحتضنه ذكرى ، ويتيه تذكُّراً [تأخذه أعوامه الأربعون إلى حيث مدرسته النائية ، تلك التي غدت الآن معسكراً بعد أن كانت مختبراً بشريّاً يلجّها الطفل طيراً فيبرحها طائراً أثيراً في سماء الاعتداد والمعرفة ... يعود ليتذكّر فتوّته ، وتلك التي شكّلت له عقدةً تركته يجمع أحجار البغض لكلِّ فتاة ، ويرمي بها كلَّ إمراةٍ عندما أدخلته تهافتات الأعوام حومة الرجال .. يعود لذلك الزقاق والصبيّة " وداد " التي تكبره بأعوام .. يعود لضحكاتها المكايدة ونظراتها اللعوب ، ثم كلماتها الغريبة تبعثرها أمام خطى أنظاره .... فما أن يترك البيت خارجاً وقد سرّح شعره وأعطى ارتياحاً للمشط المُظهِرهُ أجمل طلعة حتى تلتقيه لتُسمِعه الضحكة البغيضة ، والكلمة الجارحة ، والنظرة اللاغية لفحوى الاعتداد ... وما أن يرتدي بدلة الفتوّة الحديثة الرائقة حتى تنهال جيوش التهكُّم بسهام اغتيال البهجة ، وتمزيق شرانق الأحلام المستقاة من التباهي بالملبس الجديد .] ... واستمرت سليمة تعاني من مماحكاة ربيع / تجافي سلوكه المتكسر الاعتداد ... يرى المدرس ذلك فيتّخذ الحياد أولاً ثم يرشق الولد بنظرة رافضة ثانياً ؛ فيتلقّاها الأخير بسلوك منضبط .. لكنّه لا يفتأ يعود لممارسته المشاكسة ونظرته المكتومة لتتشظّى ، وستكتسح الوجه الممتلىء باحمرار السخرية ،، وسيسمع المدرس كالعادة هنّات سليمة واحتجاجها الحاسر للجبين ، المُقبِض للحاجبين / الكامش للشفّتين ،، وسيتلافى الحدث لئلاّ يتفاقم إلى احتجاج البنت بكلمات مبعثرة ودمعٍ غزير (لقد شهدها عديد المرات تسفح دموعاً دافقة لأنَّ زميلةً لها تعدّتها بدرجات أحد الاختبارات .) . لكن الأمر هذا لم طُل إذْ الحكمة تُجاهر بأنَّ حبل التفكّه قصير ، فلا بدَّ إذاً من زمن سيفيء فتنقلب

المعادلة [ويرى الفتى لصيق الزقاق نفسه يبرح المدرسة التي صارت معسكراً لتدفع به لمدرسةٍ ثانية أعلى مستوى فتغيب " وداد " عن ناظريه ! .. إلى أين ؟ ... لم يسأل ..... يخلو الزقاق ، والفتى يعلو ، يبرح مدرسةً ليلتحق بأخرى في مدينةٍ نائية يكسب منها شهادةً عُليا ،، ويعود .... يرى إلى إمرأةٍ تدنو منه / ترسم ابتسامة / تلقي تحيّة / تقدّم دعوة لزيارتها ؛ ثم تلح وفاءً للأيام .. وأية أيام تلك التي خلقت منه نافراً ، ضجِراً من ملاقاة الأُخريات ... ولم تنفع كلمات البوح وصراحة القول بالحب الذي كان يتناسل في قلب تلك الفتاة التي تكبره والتي كانت تنطق قولاً وتخلق نظرة كي ما تُسقِطُه في شباك مودّتها ،، لكنّه آنذاك لم يكن يفقه تينك الأسرار ،، ولم يترجم عطر العلامات كاشارات للاشتباك .] .. واستدارت سليمة لتأخذُ حيّزها من التشفّي بعدما ألقى المدرس سؤالاً على ربيع حدسه جميع التلاميذ على أنّه فخٌّ رسمه الأستاذ له حيث وقفت البدانة عاجزة ، وحمرة الوجه استبدلت لون الاصفرار ... وانطلقت ضحكةٌ جهيرة / متشظّية من على بعد أربعة كراسٍ وخمسة تلاميذ تصلَّبَ لصداها الولد وجفَّت شفتاه ... ولم يعنه قوامه الهائل على الاستدارة للرد ، فتهاوى في كرسيّه ، ليُنقَل بعدها إلى إدارة المدرسة بغية الإسعاف والمعالجة .

زلة 2002

تحوّلات امبيّــة

(1) شفرة الانطفاء

مازال "امبيّة " يواصل خروجه الصباحي ... ومازالت ناقته وحوارُها يتقدّمانه نحو كثافة الأثل القاتم ، وهو كل يوم يتّخذ من صلادة الحجارة المرمرية مجلساً ...

المخلوقتان على يمينه بينما ينتصب إزاءه تلٌّ ذو حمرة دكينة ، وهياكل حلزونية كوّنتها تعرية السنين ومثّلتها قِمة لا تشابه قمم التلال المعتادة ....

الصغار من أقرانه لا يقربون المكان .....

تحذيرات الأهل كانت سدّاً مانعاً لوصولهم رغم أنهم وصلوا . سكنوا تعرجاته واعتلوا قمته ولكن بحذر لا يوازيه حذرٌ آخر ، فكل ما حولهم وتحت تكوينات حديدية وليدة الطبيعة الصحراوية الغريبة ، الغامضة شابتها ذرّات رمل تماسكت مع نسيجها المعدني .. في البدء دُهشوا للمرأى . نقلوا معهم تكتلات أحجام متفاوتة . ظلوا يؤمونه ، ثم ما لبثوا أن تركوه . صار جغرافيةً ماثلة لا تثير الفضول .... اتّحدت آراؤهم مع تطلعات أهليهم (إلا " امبية " .... كان يحيل وقت ما قبل النوم أسئلةً – عن غرابة التل ومكوناته – يسكبها على مسمع الأم فتأتيه إجابات ملفّقة مشوبة بالتخويف والتحذير يصّبان في رغبة عدم التقرب خشية الأذى – لكنَّ الوسادة ما فتِئت رديفةَ التخيّل ، ينطلق معها قبل أن تنقله أجنحة الكرى بعيدا) ....

سمِع من أبيه أن الحديد مادةٌ تدخل في صناعة السيارات والطائرات والقطارات ... ولأنه اعتاد على رؤية السيارات تقطع الشوارع ، والطائرات تمر عبر أجواء واحته باتجاه مدن الشمال فقد تعلَّق فضولُه بالقطار ..... سمعَ به ولم يره ... صورة سحرية – هكذا أفشى لنفسه – يصنعها هذا المعدن ويقدّمها كيانا جوّالا يجوب المسافات ويعانق المدن .... ذلك ما أرهقه في التحليق والتصور .... ولكي يستكمل عدة الانطلاق مع الخيال وينأى عن تهويمات لا يستطيع ذهنه تشكيلها حوَّل زمنه الليلي القادم استفهامات عن القطار وشكله / حجمه ومحتوياته / المحطات التي يدخلها ويخرج منها / ثم تصميمه على أن يعتليه في اليوم التالي ...

في اليوم التالي لم يجلس على الحجارة المرمرية بل تحرّك ليطبق ما فكر به البارحة بعد إلقائه نظرة على الناقة وحوارها واطمئنانه لوجودهما منهمكين باجترار ما اقتطعاه من أطراف شجيرات الأثل اتخذ – بين التعرّجات – طريقا للصعود بحثاً عن مكانٍ يراه مُلبيّاً للرغبة .

قال : "هذه المحطة ، وهذا القطار ." .

جلس على مساحة مسطّحة لها متكأٌ محددٌ.. التفت يمينا وقال : "هذه النافذة المربعة بزجاجاتها الصافية الشفافة كما وصفها أبي ستعرض مشهد الأشياء التي تمر ... وهنا على شمالي الركاب يجاورونني ." ...

باتكائه على المسند الخلفي وشروع لحظة الاسترخاء و اندفاع صوت ولَّده انطباقُ شفتيه : فووووو شعر بآلة الخيال تنطلق ... تتهافت الصور وتعدو إلى الوراء بأقصى تمكُنٍ ... تودِّعُه محطاتٌ وتستقبله أُخر ؛

وهو من فرطِ سرعته صار يهتز ... مال القطارُ فمالَ الجسد.. تفاقم الميلانُ فزاد الخُيلاء ....زاد ..زاد !! ما لبث أن تهاوى جانبا !!

فكان السقوط ...

بروز حديدي ناتيء هو الذي ضربَ رأسَه فأنتج سخونةً رطّبت الشعر المنسرح وساحت سائلا تلمّسه أحمرَ لزجاً . أرعبته سرعة وصول الحمرة إلى ياقة ثوبه ثم نزولها إلى الجيب والزيق ... لحظتها هرع يتعثر باتجاه البيت ناسياً أو متناسيا الناقةَ وحوارها .

تلك الليلة كان قطارُ الحمّى يقلّه صوبَ محطات الهذيان ...

ولا ندري إن كان " امبية " سيُحبُّ القطارَ ويُفكّر بركوبه بعد ذلك أم أنه سينضمُّ لأقرانه وينسى أنَّ ثمّة تلاً حديديا يرعى جواره ... لا ندرى . لأن أمّه الساهرة إلى جانبه – تلك الليلة – آثرت عدم التكلم معه خوفاً من وقوعه في دائرة استعادة الحدث وتبعاته .

(2) وطأة العشاء الباذخ

كثيراً حاولوا معه فلم يفلحوا ... ما أن يقربونه حتى يُعلن نفوره ضاقوا ذرعاً به مثلما ازدادوا خشية عليه .. يلوذُ بفيء شجرة الأثل تاركاً لرأسه الهدول فيما عيناه الدامعتان الوسيعتان تقرَبان حجر الأرض تودّان لو أنهما انزويا بين الثنايا سعياً لانطفاء صورة الملاحقين (يتابعه " امبية " من وراء جذع شجرة الكالبتوس المنتصبة حَذاء جدار المرعى بنظرات كسيرة ، وبين توقف يسير واندفاعه هائجة يؤدّيها الملاحقون يغمض الصبي عينيه هروباً من نتائج الحال فتداهمه من خلف الأجفان صورة أشد أسى ولوعة يرى فيها " الحوار" صارخا مستنجدا ولا أحد يوليه السمع ، فالميعاد أزف ويبدو أن المخلوق البائس فهمه فحسب له هذا الحساب من الهرب والانفصال عن الأم التي علَّمته كيف سيصبح جملاً أثيراً يتحمّل عاديات الصحراء وجفافها المريع .).

دبيبةً كانت الحركة ... عبارات الترحيب تنشر إعلان البهجة تسكبه أفواه المستقبلين على وجوه ضيوفهم .... الضيوف سيبيتون الليلة ، وهم على كثرتهم تستدعي الضيافة وجبة طعام وفير ...

حزمةُ رجال مدجّجون بإصرار مكين طوّقوه مقرّرين عدم تركه يؤدي فوضى لا طائل منها ... انقضوا عليه غير حافلين بصوت جهير أطلقه استنجاداً ؛ ولا آبهين لردِّ الأم المنتصبة / الصاغرة هناك تطالع مشهد الاستحواذ أيضا / أيضا لم يعطوا اهتماما لعواطف الصبي التي تأججت فدفعته للابتعاد عن حلبة اغتيال المشاع (صعد التلّةَ المناهضة لبيتهم مؤثِراً التخفّي بانحدارها الحاجب للبيت و تماثلات الحركة الدائبة للمضيّفين – أبيه وأخوته وحزمة الصحاب – فقط صراخ الحوار وصيحات الأم مضيا يخترقان حُجب الهواء فيصلان مسمعه مثيرتان لديه رغبة تقديم العون .. ولكن !! أنّى ذلك و حضور الضيوف صار حقيقة ناجزة تدعمها بطونهم الفارغة ، ثم اندفاع الأب لإثبات حسن كرم وصل ذروة التفاقم ؟!...

قُدّم العشاء باذخاً ؛؛ واستحال المساء حديثا متواصلا ... حديثُ اللقاءِ الحميم بعد الفراقات الطويلة ... ولقد استطال الليل على "امبية " وتفاقمت كوابيسه جرّاء أحلام وتفكّرات كان فيها الحوار موضوعاً يرجرجه سطح الذاكرة ، لهذا كانت أوقات النوم متقطعة يساجلها الكرى وسط تناهي قهقهات الزائرين وحواراتهم المتواصلة .... ولأنها كذلك نهض مع الفجر يطرد نعاساً لمّا يزل يلتصق بالرموش ... خارجاً تحرّك ، وباتجاه

المرعى وقف يبغي إلقاء نظرة تفحّص تعطيه تأكيداً راسخاً للنهاية المحزنة ففوجئ بالدهشة تنهال وتعمّه لحظة ذهول أبصر خلالها " الحوار " يتراكض جذِلاً مثلما يفعل عندما يقرَبهُ كل صباح ؛ لكنَّ مشهدَ الأم المكلومة بانطفاءٍ أفرغ الدهش وأظهرها غارقة بضياع لا ترى فيه الفلذّة التي اعتادت ملأ عينيها بصورته .
ولأجّل تقديم المواساة و إظهار الألم اندفع الصبي باتجاهها تلاحقه ترددات شخير آتٍ من نافذة المربوعة / المضيف ، تطلقها أفواه وأنوف الغارقين في محيط نوم عميق ... عميق !!

(3) تحـوّلات

أعـوامٌ من الجذل الرتيب عدت .. و أحلامٌ من موحيات الصّبا تفكّكت كان على (امبّيه) أن يطويها كيما يتطلّع للقابلات من الأيام ... رأى جسده ليس بذاك الهيكل النحيل / الغُر ؛ و خيالَه غير ذلك المُهـر السارح نحو تخومٍ من رؤى تتوازى و أعوامه المعدودات . و سلسلة التلال التي كان يبصرها يومياً صارت ارتفاعات توحي بتهافتات صور طفق يستعذبها متأملاً قممّها النافرة / المتوثّبة ، مؤججةً داخلهِ رغبةً جامحةً أسَّس عليها تخيّلات هائلة .
ذلك الصباح أمسك عصاه و تحرّك تاركاً ناقاتٍ شرع يضيق نفساً بقيادتها .. باتَ موقناً أنّهـا لم تعد من واجباته ، فالبناتُ أولى... صار ينظر بشيءٍ من الخجل الحييّ للفتيات اللائـــى قضـى معهن زمناً يرعى و يعيش عبث طفولة رخيّة بينما يختلق صوراً لأُخريات تأتي بهنَّ محفّات الخيال ... اندفع ، و بكل سخونة الدماء الضارية / المضطرمة في عروقه يعتلي صدر السلسلة العالية باتجاه الفضاءات الفسيحة .. حين أدركها تطّلع من عَلٍ فأستنتج قواه تتفاقم ، وأعماقه تفور .. ارتقى أولَ قمَةٍ . (للقَمه لون قهوي تنبثق على رهافة قمحية لدنه) غرز على زغبيها عصاه فتفجرّ الدمُ يُلاطم صدغيه فيما شيء كالارتجاج تبيّنه يهاجم مملكته الروحية .. زحفت العينان متوهجتين تمسحان تلك الأرض التي وطأها من قبل فتلمّس دفءً غريباً ، وتنفس عبقاً شهياً يبعثه ثراها الطري .. وإذْ نظرَ بعيداً .. بعيداً داهمته غرابة المدّ الداكن / الغابة الفحمية .. تذكّر أنّه لم يدخل تلك الرقعة السريّة بل سمع عنها آنذاك .... آنذاك كان خائفاً / وجلاً . لم يرها غير أكمات تُبدد إهتماماته وتلغي حالة الفضول الذي يدفعه للاكتشاف . هذه المرّة هبط متدرعاً بالإصرار وسخونة الدماء الصاخبة ، مثيرةً مملكته الجسدية ، تاركةً الارتفاعات التي مافتِئت ترتج كأنّها استعارت الكثير من هياجه ، أو كأن قدميه كانتا تضغطان مكامن حيوات تعيش سُبات الأزمنة السحيقة ..... تنده به فلا يستجيب ؛ بل يتحرك تقدّماً مأخوذاً برغبة اكتشافات لا معهودة ، مؤجلاً تحقيق العودة / مُهمِلاً تواليات النداء حيث الذي إزاءه يحثه على الدنو ، ويدفعه لارتشاف كأس غوايةٍ أشدّ أريجاً .
يانعةً ، بهيةً ، كثيفةً كانت زروع الغابة .. سلّمته منافذ وإبتداءات دروب فيها من الإغراء ما جعله ينسى الارتفاعات وراءه متخليّاً عمّا يذكّره بموجودات ما خلف التل . الأب والأم والناقات والألسن التي قد تواجههُ عَذلاً . .. باقترابه رأى ثمارَ الإغراء تنهال عليه رذاذاً وبدخوله التهمته جنان الجذل .. راح عائماً / غاطساً ثم استحال غريقاً : " آآآ .. ما أعذب الغرق ! " ، تفجّرت الأعماق ترداداً ...
حين العودة خُيّل إليه أنَّ وجوهاً صغيرةً كان ألفها تطوّقه ... عيونها الذاهلة تستفهم عن غرابة فعلٍ ارتكبه .. حَدقَ فيهم وجهاً فوجوهاً . (لن ترون امبيّه السابق !) صرخ صـوت صمته ... قليلاً واندفع خارج الحلبة .. هناك / هنالك .. عند سفح رملي تطلّع إليهم يلعبون .. عاد إليه حنين الأمسيات الراحلة فاستدار متقهقراً /

خذيلاً .. لاذَ خلّف أكمّةٍ دكينة مُجهشاً ببكاءٍ دامعٍ / مرير ... في أعماقه شهــدَ شيئاً ما كالحلم يتهشم ، وطفولةً دفيقةً كالماء تتسرب من بين أصابع أيامه .. ولن تعود .

(4) تماهيات التضاريس المقدَّسة

.... وهكذا !!!

طفق " امبيّة " يقتفي خطوَ الذين سبقوه ، موغلاً في تعديل هندامه تاركاً لحظات مُسهبة لمشطٍ _ دائما يُرابط في جيب بنطاله _ مهمّة ترويض الشعر الأجعد وإظهاره يتماشى وصورة الاهتمام بمتعلقات الهندمة .

القميص (كودري) قطني / هِفهاف ، تتراقص على طراوته السوداء زهورٌ حمر دقيقة ، بشكل حشود تزاحمُها أوراقٌ خضر متكئةً على أغصان بنّيّة تتوارى من فرط هيمنة الأحمر والأخضر .

وللبنطلون ضرورة تتوازى وتأثيرات رونق القميص .. كذلك الحذاء آثر " امبيّة " أن يُظهرهُ لافتاً .(لم يعد يلتفت لأماكن يؤومها بحفنة أغنام وناقات .. وحتى عندما يمر وتأخذه عيناه لهاتيك المواقع لا يتولَّد لديه ما يدعو إلى الحنين ، لأنَّ الشوارع المسفلتة في الواحة ، والمحلاّت العديدة التي صارت لواجهاتها بريق خاص هي ما مثّلت محطَّ الاهتمام ، وتجلّت بؤراً للإغراء والغواية ... صار عليه _ أيضا_ دخول حلقة اللقاءات مع أقرانٍ يقاربونه ، أو كبارٍ يسعى لأن يكون أحدهم .. شرع يتحدّث بلغة العليم عن أشياء حتى وإنْ لم يعرفها ... يصرُّ على مصداقية رأيه وإنْ كانت من عِداد الخطأ .) ..

وفيما كان " امبيّة " يغترف من مناهل الفتوّة والشباب سابحاً في حبور لم يمرُّ به من قبل لملء جعبة التوجّه في المضمار الآتي كان الأب هناك ينزلق متقهقراً بتفاصيل يتلمّسها يومياً مكبوحاً بإحساس يصوِّر له الأمر وكأنّه استحواذ يمارسه الابن على الأب كحيلةٍ يحبك خيوطها الزمن بقرارات جائرة مبنية على أساس سلب (من) وإعطاء (إلى) بفعلٍ لا قدرة للاثنين على وقفه وتحنيطه ... وذا يوم غافل الأبُ ولده .. راح يبحث في جيوب بنطاله المُعلّق على الجدار عن أسرارٍ مُختزنة فواجهته بلا انتظار (شارون ستون *) بجسدٍ لدنٍ وابتسامة يرسمها فمٌ فاغر / جائع ثم نهدين متربصين أسفلُهما مجهولٌ حيث الصورة مُقتطعة من مجلة حروفها ليست من أقارب العربية تعرض فيلماً هي فارسته .

ثارت حفيظةُ الأب وتفجّرت الأعماق .

حُسِبَ الابنُ عاقّاً ..

وتراجُعاً ، تراجُعاً عاد الأبُ يشتم زمن الآن (عصر الفسوق) حنيناً باتجاه زمن الأمس (منبت الوداعة) يوم كان فمُ الأنثى لُغزاً والنهد تضاريس مُقدّسة / مُحرمة من خارطة الجسد بعيداً عن التخيُّل ، لا يتم تحقق إدراكها إلاّ بمراسيم عُرسٍ متراكمة ، تحمل خاتمتها المفاجآة ، ولات وقت الاعتراض وعلى المُقاد بأعراف المحيط الرضا بما مكتوب .

إذاً كان تصميم الأب على معاقبة الولد جازماً وقلب الدنيا بما احتوت فوق رأسهِ أمراً مفروغاً منه .. لكن !! .

وبنظرة مُعادةٍ للورقة الملوّنة / الصقيلة تمنطقَ الأبُ بالتأنّي (التأني الذي يشبه إعادة الحسابات) ، متطلِعاً وبحسرةٍ ممطوطة (ممطوطة كالتي تستعيد تهافت الأحداث) لغرفةٍ طينية مركونة ومهملة كان كتَّلها وأبوه قبل عقدين .

تلك الساعة المقتطعة من سكون الليل .. وفي لحظة تأجُج رغبة مُنتظَرة تسللت يد " امبيّة " لجيب بنطاله استدعاءً لـ(شارون ستون) ، وابتداءً لغة الحوار المباشر مع التفاصيل المُجسَّدة ...

ولشد ما كُبِحَت كفُّ الفتى بصدمة الفراغ والمباغتة وخواء تلك اللحظة !!

تلك اللحظة كانت (شارون ستون) تتلوى عاريةً بابتسامة إغراء يسكبها فمٌ فاغر إزاء حمحمة / نهِمة / جهيدة ومتهالكة ، في مكانٍ .. مكانٍ ما !...

زلة 1999

*** شارون ستون : ممثلة أمريكية تمثل أفلام البورنو .**

من فيوض الواحـة

(1) رغاوي الصبر

أطبقت كفُّ الرمال على نقاء الواحة فلوّثت وجنات الصفاء بصفير يشبه العواء ...

اكتأب القابع في غرفته الحسيرة تحت بصيص مصباح تتشربه دكنة الجدران خلف منضدة خدَّشتها نقرات صفر أزالت رغبة التطلّع إليها بارتياح ؛ مثلما أثار امتعاضه صرير الكرسي الجالس .

النافذة المطبقة لم تشفع لفضاء الغرفة بقاءاً بعيداً عن الهياج الضاج في الخارج إذْ تمرَّدت عليها الثقوب فأباحت لألسنة الريح افتضاض بكارة الفناء ، واقتحام حُجُب العينين وسواتر المنخرين بفضاضة هوجاء .. أنتج الكيان الممتلىء بالكآبة عِطاساً هو أقرب إلى احتجاج الكائن على هلوسة الطبيعة ؛؛ أو رفض الكاتب لواقع يعيش جزئياته (لقد قطعت عليه اللحظة بوح ذاكرة ، و أطبقت على شريط ذكرى .) . ذاكرة كانت تتحفّز لاستنارة يرى من خلالها مسار أيام هاربة وجلسات هي من عِداد الألفة والحميمية ؛ مع صحاب يدخل معهم سجال التحاور بالرؤى افعاماً لذائقة ترتج بعذوبات القراءات اعتماداً على مواهب تحترق ، وإبداع يُخلَق (يومها كانت ظاهرة " التناص " تناقش وسط آراء تتفاوت _ يضمّهم مقهى أو تحتويهم أرصفة _ بعضهم يقول : هي بدعة ، ومساحيق مصطنعة جيءَ بها لتُحسّن قُبح وجه سارقي إبداع غيرهم فيما المناهضون يُصرّون على أنَّ ما نكتبه ليس إلاّ نتاج نصوص من سَبقنا ،، وهي جدلية لا يمكن القفز من فوقها ، استناداً على مقولة : " ما الأسد إلاّ خراف مهضومة " ... وها هي الرمال تسخر من استعادة قول ، واحتدام مقاربة .) .

ظنَّ الأمر دقائقَ ستمر ، ثم تؤول إلى منتهى . لكنَّ الدقائق تمطَّت ؛ والعواء تقمَّص زمجرةً ،، لم يقتصر على فمٍ واحدٍ بل تجمعت حزمة أفواه لتبث القلق مدراراً .

سمعَ مَن يصرخ خارج الغرفة : " إنّها عاصفة !! " فضجَّت في مسمعه الكلمة ، مستحيلةً فَزَعاً :

عاصفة !! .... المفردة التي تفتح أمام كآبته شريطاً من اليأس ، والرعب ، والعصاب .

عاصفة !! .... سماءات متكرّرة / أنين موجوع / تمزّق أحلام / تشظّي وجود .

عاصفة !! .... نهار أخرق / ليل عار حيال جبال مجرّات الصقيع / جوع يُعلن تسيّده ، وشوارع صارت لافتات للضجر / أزقّة تحتمي بالهمود خشية العُري .

_ ستتمزَّق خيمة الصبر _ تمتمَ _ ، ويتهشَّم عمود الثبات _ صرخ _ سيبدأ العراء من جديد وسيبحث عن منفىً قسري ...

عاصفة .... وصحراء !! .. وجود أُحادي في غرفة دكناء .. هجوم متوال بنقرٍ يشبه الحفيف المتعالي تحيله النافذة إلى سقوط قذائف " هاون " فتذكّره بالحرب الأولى .. ثم يتفاقم انفجارات مهولة تعيده إلى الحرب الثانية فيدرك أنّه وسط حرب ثالثة مُعلَنة تُحقُّقها الذكرى وتنفذها الرياح ... لم يرَ كما كانَ يحصل له في ساعات الهناء جدرانَ الغرفة تتراجع لتنفتح على فضاء فسيح يدفع به إلى محفّات سرور مُنغَّم ، وأنسام ربيع راقص ؛

بل لمح _ الآن _ هذه الجدران تضيق وسط سيمفونية تُعزف على ايقاع طبول مجنونة تقوده إلى بعثرة ما بقي من رصيد عقلي يقارع به تقادمات الأيام الثقيلة ... صرخ : " لا ! " فتاه صوته في بريّة اللاسمع .. " لا ! " .. تصالبت العينان على السقف الهابط بتؤدة . تجلمد الجسد فهربت النبضات الرشيقة من الشرايين الحييّة ؛ داخلةً القلب الذي شرع يستجدي من الدماغ ايعازاً بهيئة فسحة تديم له لحظة من البقاء . . غير أنَّ الدماغ كانَ منشغلاً باستنباط صورة سريعة يبثّها في العينين المتصالبتين . صورة حشود أسى يتناسل رغاوي داجية فوق جمع بشرية منهمكة / منهكة تدفن أحلامها في يباب القتامة والتردّي ؛ والفعل اليائس ... ولكن ! لا يدري من أين أتته نبضة الأمل الشاردة فأمسكَ قلماً ليدوّن حصيلة وعي أثبت تفكّك المعادلة ، وبأس إشراق ظنّهُ خيمة ستهفو إليها النفوس التوّاقة للظلال الرطيبة ... حين أتمَّ التدوين تشكَّلَ نصٌّ مستل من تناص ،، وقهقهة متعالية / متتالية ظلّت ألسنة الريح تلوكها بانتهاك صارخ في فضاء الشماتة ، والتشفّي ، والتقريع .

زلة 7 تموز 2000

(2) فلاش باك

تفتّت الغيمة البيضاء لحظة أطال النظر في تواليات الريح وهي ترسم بواكير مقدم الخريف ... لم يكن يدرك فحوى الأمر عندما داهمته فكرةُ تجسيد حاول كثيراً جعله من عِداد اللا ضرورة لوصفه / اللا قبول لعرضه .. قالت له : سيجعلك البعدُ عن الديار تكره تفاصيل الحاضر ، وسيدفعك إلى العدو كالمعتوه خلف سرابات الذكرى التي ستتفاقم رويداً ، رويداً فتخسر بذلك تجارة الحاضر ورصيد الماضي ، وسترى إلى مستقبل تتراغى ضبابيته تماماً كما هو كل فرد من أقرانك أو أندادك آثر الضياع وصولاً إلى القطب المميت . (تناثر جسدُ الغيمة وتفككّت الأعضاء . تشكّلت جرّاءها أبعادٌ هلامية لا تمت لفحوى الأصل ... رأى قرناً يحاور ذيلاً ، ولبوة تفقد بطناً فيستحيل خطماً لخنزير ... رأى جذع شجرة يتهاوى بآلية بليدة ، ورموشاً بشرية تسيل كالدمع الضنين .) بحثَ عن قلمٍ دسّهُ في جيب بنطاله ليجعله سهماً يفتك بجسد أية فكرة ستداهمه . (إنّه يتوقَّع هجوم الأفكار الدائم ، ويتحسّب للغواية المنبثقة كإصبع سحري من سيح رملي .) .

قالت له : سأكتبك قصّة أو أدوّنك قصيدة .. سأرسمُك معبداً مهما أبديت التنبؤ وتوقعتَ الذي سيحدث أو اللا يحدث .. سانحتك على قراطيس الذاكرة ،،، وسأطبعك على جباه الفجر . لا بدَّ أن أخلِّدك ، قالت ،،، عندما تشوَّشت إزاءه شذرية السماء ؛ وطفقت أشرعة الريح تبعثر حيويتها تمزيقاً لصفاء الفضاء الفسيح ... تذكّر خريفيات بلدانٍ شمالية جابها زمناً مقارنةً بوجوده الماثل في واحة هي نقطة خضراء في مدٍّ رملي مفازاتي بلا حدود ... تذكَّر أنسامَ بليلة كانت تحمل أرائج لحاءات الشجر العملاق ، وقوامات الأغصان المتعانقة للغابات الناهضة تواليا ... عادت إليه صورة الأوراق الزاحفة بتحريكٍ حفيف على الخمائل الخضر ؛ عارضةً صفرة ذهبية كنبوءةٍ لا تقبل التردد بفصلٍ سيأتي ... تذكّر ساعات الحالمين وأنظار السائرين على أديم الرومانس ، هنالك في جلساته المتكررة على المصاطب الوفيرة ، متابعاً حركة الناس الراقلين بحبورٍ جنائني أو راحلاً يترجم فحوى المقارنة بين واقعٍ وآخر ... تذكّر " بوشكين " ومعشوقته " ناتاليا كونتشاروفا " التي

غدت زوجةً قادته تحت تأثير حسد الآخرين إلى فم الموت ... تمتم أشعاراً من " كيتس " الحالم ، الرافض لجيوش " فايروسات السل " تفتك برئتيه الغضّتين . وحين مرَّ على " ديستوفسكي " تكدّر .. كان وإيّاه يتقاسمان " الصرع " ؛ يهبطان وادي الآلام ويشربان من منهل الوعي المرير ... تذكّر " مايكوفسكي " وقراره في وضع حدٍّ لتجني وإيقاف خيول الاحتراقات الصاهلة في ميدان روحه المُعذَّب ، فانتفضت في رأسه فكرة سوداوية تقرِّبُهُ إلى اعتقاد أنّه مُنتحر في هذه الواحة وإنْ بدا متعافياً ،،، ميّتاً وإن أظهر نكراناً للهزيمة .

آثر النهوض ، تاركاً مساحةً سطحية لتلٍّ اعتاد اعتباره منبراً لتفريغ الهموم ، ورمياً للحظات الشقاء . نهض مشفوعاً بهمسٍ يتعقَّبه .. عرفه : صوتها يمارس المناجاة ، ويلاحقه بهراوات التحذير مستلَّة من طوايا الحِكَم .. لم يلتفت ؛؛ فضولُها استحال ظلاً يلتصق به . ، وقلمه صار يخلق وعوداً تشي بالاحتفاظ / تسعى للتحقيق . يدري أنَّ النهار يطول . والأطول دهاءً لسان الليل يخاصمه بالقلق ، ويأتي إليه بعربات الهموم ، وكوابيس ، والتطيّر .

في غرفته المسكونة بالصمت فوجيء بها تجلس عند منضدته ... وتكتب :

" من مكاني النائي ؛؛؛ من ساعات تفكّري أنتقي كلماتك فأعزو حزني لتهالكات كبريائك ؛ ذلك الكبرياء المتخفّي بين ثنايا رداء التكلّف ..... هل وصلتكَ تحايا الثبات ؟! ... ألم تستعن بجَلَد المسحوقين بالآراء الكبيرة ؛ الناشدين رياض الشمس سنرفل على ثراها أنا وأنت معاً؛ ألم ؟! .. " .

عندما مدَّ أصابعَ أنحلها الارتعاش كي تتحسس وجهها غزته غرابة الموقف / باغتته الورقة الزرقاء تضمُّ أسطرَ ، ولم تكن _ هي _ هناك ... كانَ الكرسي فارغاً ؛ فقط استقرّت عيناه على طابع يحتل زاويةً من مظروف دوّن في وسطه اسمُ بلده البعيد ، وصدى أنفاسٍ هي من بقايا ألقٍ سحيق ....

زلة مايس 2001

(3) أنفاسُها والشِّباك

اكتنفه الغموض ، واعتراه طيفُ البَلَد .. طارت به فقاعة الهيام محمولاً على حلم التقاء حُقبة الأيام التي مرّت واستحالت قبضَ ريح .. يندبه بها ألاّ تتوارى فتواريه تحت رمال العسف .[حين رسمَ أولَ قبلة مغموسة ببراءة شفتيها وانسحبَ منتصراً تهاطلت عليه أقواس الشمس تُدبج لوحة الرومانس المُداف بأرائج القرون الوسطى ؛؛ تلك الاحتفائية المذهلة بالماحول خروجاً من قيد المألوف / عدواً باتجاه قلاع الحرية / استبدالاً حوارات العيون بمفردات الشفاه .. ولم تقل له " : ما بكَ تعتصر قلبي حتى تسحقه ؟ " .. كذلك لم تفه بامتعاض يُترجم العَتب ؛؛ إنّما قالت : " كلماتُكَ كقُبَلِكَ ، مزيج من عسلٍ وارتعاش ." فعاجلها بضحكةٍ لها امتداد كركرات حفنة عصافير ، يداعبها الفجر الرطيب ... وكان عليه أنْ يخبرها بـ " شيللي " ، ويُسمِعُها سيلاً من شعره الروحي كتعبير من موجة رومانسية / سحريّة تلفّهُ ،،، لكنّها أغمضت عينيها ، وتمتمتْ جَذِلةً : كفى .. كفى .] يُجاسد أيامَهُ بالتفكُّر ، لائماً النفس بألسنة الحسرات ، مُقلِّباً صفحات الأمس فلا يحصد سوى رسائل النائين ، يُعنِّفونه بالأسف ، ويدعون خطاه للقدوم .. يطالبونه بالذكريات الخوالي / بأحاديث الضفاف /

بالأرائك التي كانت تضم شوق اللقاءات بينما هو منشد للواحة والنخيل والوجه الذي ناجاه ألاّ يبرح " مدوين " .. [لملمَ أنفاسها ، واحتوى بشباك أصابعه اللؤلؤ المنسكب من مرفأي بحريها الغريقين .. بعثَ إليهم يرجوهم أن يرحموه ؛؛ ومع أسطره المُسترحمة أردفَ قارورةً من هذا اللؤلؤ .. قال ضعوه في بوتقة مشاعركم ؛ وأضيفوا إليه من كيمياء عواطف قلوبكم ؛ ثم اخرجوا بدلالات بقائي . ستدركون انشدادي ،،، وستحصد هي سنابل دهائها في تصمّغي إزاء صومعة ناظريها .. ولا أدري إنْ كنتم ستقتنعون أم سترددون تذمراً : كفى .. كفى .] ..

قطعوا عنه الإجابات مُستميلين إلى الصمت ، أو ربّما الاستهجان ، أو ربّما اعتبروه من قطيع المتخلّفين / اللاهثين خلف سرابات السذاجة والبَلَه ، فيما هيَ بكل سكاكين الواحة قطعت حبال انشدادها إليه ؛ مُستجيبةً لنداء البوادي ،،، فإذا الزغاريد تفتضُّ سماء ذهوله ؛ وإذا الحنّاء يشيع شذاها مُستعمراً الفضاء ؛ وإذا النداءات ترتدي معاطف الرماد ، ونجواه تتعثّر بأرجلٍ عمياء ؛ وإذا به يبعث إليهم ليطلعهم بخطل قراره ، راجياً أن ينجدوه ولو بنفحةٍ من رمال المواساة .

زلة آب 2000

(4)عاطفة محايدة

سكبَ الصباح ضوءَه على الهامات العالية لتلال الواحة ، وسال منحدراً ليجلي عُتمة التضاريس مانحاً إيّاها التكوينات الحقيقية بعدما ظلّت طوال ساعات الليل ترتدي أشكالاً جثوميّة دكينة .. وحتّى الكاتب الذي هيمنت عليه فكرة طرأت مباغتةً استمرّت لوقتٍ زحوفي يرثي وحدانيّته الماثلة رغم أنّه كان زماناً مضى يستعذب هذا الانسلاخ الروحي رحيلاً باتجاه استكناه الأشياء وتأمل حيثيات المسار الذي سلك ... وصفته أول واهمة كانت تكتب لواعج حبٍّ مراهقةٍ بأنّه مُعقَّد ويحمل مبررات الجنون ؛ فيما اغتالته آخر عاشقة ولم تنثر ورود علاقة ظنّتها ستخطو محفوفة بأكاليل الابتهاج والسِفر العذب ، بل أطلقت عليه كلمات امتعاضها وعلّقت على جدار رفضها عبارة : " أنتَ مُقرف فكيف أقضم السماء .. بليد فمن أينَ لي بالثرثرة ؟! ".

يحتفي بـ" فرويد " كتبرير لسوء أحكام أنتجتها بوتقة أفكار العشيقات .. هُنَّ يشغلهنَّ شيءٌ واحد ؛ أما هو فإزاء جيش من أشياء .. يبتسم لإحداهنَّ تقطِّع أصابع غيظه بسكّين التشفّي ، ويرسم قُبلة هوائية لتلك التي ضربت الأرض بقدمها مراراً دلالة الجزع ، أو اعتقادها بغباءٍ يكتسح كيانه فلم يدرك مرامها .

وعلى أجنحة العاطفة المحايدة توالى الفشل يختم تعداد الرحيل ؛ حتى آل الأمر إلى واحةٍ ترى في وجودها كينونة ناجزة ، لا تستطيع رفض ذكرياتها ولا تبغي فرمَ ذاكرتها ، فهي بين فكّين من مطحنة الزمن .. إذاً عليه تطبيق الفكرة وبعثرة تفصيلاتها على ثرى تواجده ... مدَّ كفّاً لاستخراجها من جيب ذهنه فلم يتلمّس شيئاً ... قال :" أينها ؟! " .. وتحسّسَ زوايا عقله .

خرجَ من غرفةٍ لأخرى فما جسَّ رائحةً لها ! ..

أينَ توارت ؟! .. لا يدري ..
تركَ الأمر للشمس ترسم بفرشاة لونها الذهبي على الموجودات ، ونهض يستحم بالسطوع حدّ الغرق .

آب 2001

(5) نواصي الإدهاش

لا أدري كيف اصطدتُ أحلام مستغانمي بشباكي الجافة ونهر بحثي الضحيل ، سوى أنّني أمسكتُ قارورةً غريبةً أبلغتني حال رفع سدادتها بذاكرةٍ متعبة وجسدٍ شحيح مُفعم بالآه . لكنَّ المارد الخبيء سرعان ما طغى ، وعمَّ بسحابته فضاء الذهول .. وعلى نقيض " شبّيك لبّيك " أفردَ أمامي سيلاً من ورق ، وشلاّلات فائضة من هدير لغوي ، حين بللّني رذاذُ مفرداته شعرتُ بأنّني أستحمُّ بأفكارٍ عذبة / رقراقة من صورٍ تتالت فأغدقت على ساعاتي رحيلاً من ارتياح ، وأذكت قاطرات ابتهاج شرعت تقلُّني من محطّةٍ لأخرى ؛؛ وسفينة فضول أخذتني عبر مرافئ متراكمة : مرفأ فمرفأ ؛ أنستني كآبات الواحة وهربت من حولي أسوار الرمال المحمّلة بنبوءات الجفاف . [ما زالت تلك الصبيّة تقصُّ سنوات ارتفاعها باتّجاه تخوم الشباب ؛ وما زالت " ذاكرة الجسد " تستعيد رؤى الرجل المبتور الذراع ، ولقاءها به على بورتريهات خلَقها بذراعه السليمة تحكي بعضاً من تاريخ انفصال توأمها ؛ ولتدرك غب التتابع الصوري المُشذّى بالوصف الشعري والبناء السردي المتعالي بآجرات لا تنتهي من الفنتازيا أنَّ لهذا " الغاليري " متوالية من الأسباب إخفاقاً وانكفاءات ، وللجسور العديدة التي حوتها اللوحات شفرات متسلسلة من تاريخ ؛؛ وما " قسنطينة " إلاّ مكاناً أشار إليه " باشلار " رمزاً في كتابه " جماليات المكان "]..

ولقد اغتبطّتُ لذائقة " محمد علي زيدان " عندما قدّمَ لي مستغانمي جميعاً عظماً ولحماً وهواجسَ على طاولة التشريح القرائي مستجيباً لرأي طرحته يوماً عن هذا الاسم الذي دفع به الإبداع إلى نواصي الإدهاش ، فقال لي : ستصلك إلى الواحة . اجلس معها ، ولكن إيّاك أن تأكلها لأنني أكلتها قبلك ، وقبلي فعلَ آلاف القرّاء ، وحتّى لو غافلتني واعتقلتها داخل قضبان إعجابك فلن تحظَ بالتهامها لأنَّ أطباء الاستنساخ في " دار الآداب " صنعوا منها عشرات الآلاف . لذا تملّى اللوحات ، وحدِّق بالجسور . تابع فحوى الفتاة ؛؛؛ ثم لُجْ غوراً دواخل الفنان ستجد بعضاً منك فيه . [لم يقص المقطوع الذراع سِفرَ آلامه لأنَّ كبرياءه يأبى ، إنّما جاء الإفشاء على لسان المتلصصّة لأعماق الآخرين تلك التي اسمها أحلام ، فقد جاهرت هذه الروائية على عاتق الرواية بأسرار هي من فحوى الخصوصيات فعرَّت مسارات خبيئة ، ودروباً مندثرة ، وغرفاً موصدة ، وصالات تراكمها الغبار ، وأملاً راعفاً شفيفاً ، وأمنيات لاهثة متعثِّرة ، واغتيال تضحيات وأداً ، ونيل مكاسب استحواذاً ،، ثم خطأ وخطل المعادلة الأبدية اعتماداً على " ميكافيلي " بعبارته الماكرة " الغاية تبرر الوسيلة " فقطفَ الورائيون فاكهةَ الأماميين ؛ وصارت الفتاة من عِداد الجُرح الأخير لقلبِ الفنّان / المُقاتل / الطعين .] حتى إذا فتحتُ قلبي اعتماداً على نظرية " التداعي بالمعاني " لأرسطو ألفيته مُحتشداً بالجروح / ثخيناً بسكاكين غدر الأحبّة .. لذا كل ما فعلته

حيال صولة القراءة في حومة يباب الواحة هو اجترار الذكرى وسكبها في عصارة الفيض السردي ، بانتظار مخاض النص ...

زلة شتاء 2001

==========

(1) " ذاكرة الجسد " رواية للكاتبة الجزائرية أحلام مستغانمي ، نالت شهرة واسعة من لدن القرّاء .
(2) محمد علي زيدان : قاص ليبي .
(3) قسنطينة : مدينة جزائرية احتلّت حيزاً واسعاً في السرد الروائي .

(7) دفــوف

كان الفضاء الماثل يقطف الزغاريد المتصاعدة أعلى حوش الشيخ " مفتاح " عندما مرَّت النسوة الثلاث يخترقنَ حشد النخيل ويمزقّنَ الظلال الرطيبة .

الدرب الذي يتلقَّف أقدامهن الحثيثة يمر جنبَ (الماجل) الدائري الوسيع العائد لمزرعة مؤذن الجامع القريب ، ويقربهنَّ من نظرات الرجال المحتفين داخل الخيمة المستطيلة . قالت الأولى : " لابدَّ أنهنَّ أكملنَ مراسيم تحنية العروس ." وشدّت على عباءتها البنفسجية المطعّمة بدوائر لونية نافرة .. وافقتها المرأة المحاذية بكلمة : " ربّما " ! .. ولم تفعل شيئاً لعباءتها السوداء المزروعة بقطيع فراشات برتقالية مبعثرة ، بينما صمتت الثالثة التي جاء سيرها لاحقاً .. اكتفت بأنْ تطلّعت يميناً فرأت من بين كثافةٍ رجالية شباباً يحملون دفوفاً ينقرونها بضربات تتوافق وترجيعات الصدى .. تمتمت : " متى أسمع وأشهد كل هذا يا مبروكة ؟! " (وكانت مبروكة على رفيف تهافت اللحظات تنظر في مرآة دائرية صغيرة أخذتها خِلسةً من صندوق أمّها الخشبي ، خارجةً إلى فضاء الحوش حيث أصوات الدفوف نائية لا تصلها .. راحت تُترجم ابتداءات الغضون أسفل جفنيها الهابطين على وجنتيها .. بأصابع كفّها الطليقة تجوس انحدار الرقبة باتجاه النحر متذكّرةً " عصرانة " التي توازيها العمر .. تخالها كاملة الزهو / غاطسةً برفَل الرداء الحريري / مثقلةً بلميع المصوغات الباهرة خضيبةَ الكفين والقدمين ؛ ثم الجدائل) .

صخبُ الأكفِّ والحركة الجيّاشة داخل الفناء الضاج تلقّفت النسوة الثلاث وفرقتهنَّ .

الأولى : احتضنت أمّ العروس بعدما دفعها الفضول للبحث عنها وسط الجموع تُمطرها بالقُبل .

الثانية : حاولت الوصول لأداء نفس الدور لكنّها عجزت ؛ مأخوذةً بهدير أجساد الفتيات الراقصات ، والمصفّقات ، والمزغردات ؛ والغارقات في غَمَر التطلّع ورسم الأماني . فدفعها الهدير بعيداً .

الثالثة : فضّلت الجلوس قريباً من العروس تتفرّس بها ثم تتبادل الدور تخيلاً مع " مبروكة " الابنة بذات الرداء وهاته المصوغات وذلك الخضاب ؛ لكنَّ مبروكة أجمل وأرق مقارنةً .. عادت التمتمة تتهالك على شفتي الأم : " لماذا لا يطرق الحظ بابها إذاً ؟! ... ابتسمت " عصرانة " لها فتداركت المرأة الموقف شاعرةً أنها ضُبِطَتْ من قِبل الفتاة فمدّت كفّها للمصافحة .. إلاّ أنَّ طراوة الحنّاء حالت دونَ الأداء ، فضحكت العروس وضاع صوت خجل المرأة في صخب الأكف .(بينما ضاعت مبروكة في زحام أسئلة آلت إلى سؤالٍ واحدٍ جامع يقول : " متى .. متى ؟! " مستعرضةً وجوهاً مُحتملة للاقتران كثيراً تخيّلتهم ولم تصطد أحداً . عادت تجوس تضاريس الوجه والقَسمات ؛ نادبةً الآمال والرجاءات أنْ : تعالي .) .. وسمعت المرأة من بين حمّى الضجيج صوتاً : " تعالي ! " ... نهضت لتواجه صاحبتيها يومئنَ ويخرجنَ .

راحت تتعقبهنَّ خروجاً باتجاه حشد النخيل الذي استبدلَ ضلاله بالظلام ، مُجترّةً مَذاقاً استحال مُرّاً ، ومتذكرةً بنتاً غدت خنجراً ينخز خاصرة الذاكرة ويوغل في ثنايا الروح .

زلة أيلول / سبتمبر 2001

(8) واحة .. وفَتاة

ثراؤها يكمن في عذوبة اللسان ،، وأقواس البهجة تعلو على وقع خطاها . أمّا نحنُ فنحرق بيادر الوقت لهفةً لمقدمها الذي كالهلال .. كل ليلةٍ يجمعنا همسها وشوقنا الدفين للحكايا .. أيضاً شغفنا لما آل انتظار الباحثة عن يقين وعدٍ قطعه لها قبل رحيله بشهادة النخلة التي جلسا في ظلّها آخر لحظات الوداع .

_ نعم يا عمّة ؛ وماذا بعد ؟ ..

تقرأ في صحائف عيوننا أسطر اللهفة ؛ وتحصد من حقول رغبتنا سنابل الترقّب .. تُرجع خصلةً هادلة إنفلتت من هيمنة الخمار المطوّق للوجه ، ثم توجّه كفّها لتمسح رؤوسنا بحميميّةٍ :

_ وانتظرت فتاة الواحة مقدمَهُ ؛ فقد مرَّ العام وتجاوزه بأيام معدودات ... كلماته مائية عذبة تتوالى . تهمس لها تارة ؛ وتلجُّ مسمعَها بحرقةٍ تارات : " سأعود .. سأعود . وإنْ طال البحث . "

من صدرٍ احتبسَ زفيراً تطلق آهةً عاصفة . ويخفتُ بريقٌ تحاول مقلتاها إدامته :

_ كانَ همّهُ ، يا أولاد أن يعيدَ حقله الذي سُلب أمام أنظارِ أمّه ، ويثأر ممّن مزّقوا أباه إزاء عينيه وهو صبيٌ غُر .. وظلَّت فتاةُ الواحة كلّما استرجعت أيامَها الأولى معه تستشفُّ أمراً غامضاً كأنه السحرُ ساقها إلى شخصٍ دواخلُه أسئلة وعهود / دروبُهُ القادمة مخاطر ومفاجآة .. قيلَ أنّه أدرك مبتغاه والتقى مَن يمنحه سيفاً يُرهِب النفوس ذوات المكائد والضغائن .. كان واثقاً / مُدركاً لجهدٍ سيبذله وتصميمٍ أكيد سيعطيه يقين أنَّ أرضه ستعود ، وفتاتُهُ سترفل على خمائلِ حقله . ستتقافز بين سيقان الذرة الناهضة ، وبين نخيل غرسهُ جدُّهُ قبل

نصف قرن ؛ وسينده : يا أمّي ، اليكِ هديتي ! أشعلي الموقد واستخرجي دلالاً أهملتِها بعد اغتيال أبي .. أعيدي لخيمةِ الضيوف هيبتها . دعي رائحةَ القهوةِ تعمُّ الفضاء .

تأتلق عينا عمَّتنا .. تتضافرُ من فمها الكلمات ،، ونرى إلى وجهها يحمر ، وجبهتها تلتمع فتروح تتحدَّث وتتحدّث .. تعطي أوصافاً لطلعته وكلاماً كالشِعر ، مسترسِلاً عن شهامته :

_ له يا أولاد كبرياءٌ لا يمتلكها إلاّ قاطعوا الفيافي وفرسان الأهوال .. له هديرٌ لا يقفُ حياله عُتاةُ الخيّالة الأشدّاء ... إذا تكلّمَ أصمَت ،، وإذا غضِبَ أخاف .

يزداد تبجحُها به ؛ وتنطلق تطرفاً في وصفه .. قليلاً ونلمحها تتخلّى عن هدوئها المعهود في قصِّ حكايات سابقات . تنفعلُ وتهتاج .. ترفعُ كفّاً تومىء بها يميناً وشمالاً .. تطعنُ قلبَ الهواء .. تُقطِّع أعناقَ أعداءٍ وهميين .. يهولنا نهوضُها ثم انتصابها تركلُ وتشتُم ، وتنهالُ فتكاً ... ويتحرك أحدنا ذاهلاً يردد :

_ عمّه !! .. يا عمّه !!

وتنسلخُ من فصلِ احتدامِ رحيلِها ، فتجدُ نفسها بوضعٍ تبهتُ له .. تعود مقرفصةً . الصفاءُ يجلو من عينيها ، ويهربُ الألق وبقايا نضارة احتفظَ بها الوجه . وتعود سنواتُها الأربعون المنفرطة بعيداً ؛ حتى لنخالَها عجوزاً تجمعُ الحزنَ والكمد أحمالاً على كاهلها .. يُفضِّل أغلبُنا النهوض والعودة لبيوتنا خشية إحراجِها ؛ لكنَّ غيرَنا يحتشد برغبةِ معرفة الختام :

_ وماذا بعدُ ، يا عمّتنا ؟

_ وماذا بعد !! .. حسرتُها تقول مُتمّمة :

_ عاد واثقاً ؛ والفتاةُ تنتظرُ على أعتابِ الواحةِ ؛؛ تماماً في ظلِّ النخلةِ التي ودَّعها منه . أبصرته من بعيد على صهوةِ حصانه يافعاً ؛ مثلّما شاهدت رجالاتِ الواحةِ يخرجون لاستقباله .. ابتهجت !! . لقد تحقّقَ الأمل ، ولم يعُد بينها وبين السعادةِ سوى أمتار من الدقائق رأته عبرها يترجَّل من الحصان ، فارداً ذراعيه لأذرعِهم التي أفردوها بدورهم ..... وليعاد به قتيلاً مُضرَّجاً ، فيدفنوا حُلمَ الجالسةِ تحت ظلِّ النخلة في ثرى الأحزان ؛ وليخلقوا منها حاكيةً تقصُّ غدرَ الأهل ؛ وانطفاءَ قلبِ القمر .

زلة تموز 1999

(9) مقبرة .. ونزيل

دفنوه واستراحوا .. أهالوا فوقه تراب النسيان ، طاوينَ صفحة الأحاديث البائدة عنه مفضّلينَ عدم ذكر أو تكرار فحوى أفعالٍ ارتكبها بحقّهم فألمّت بهم تواليات من المآسي ، وأقوال إدّعاها زوراً على ألسنتهم فقادتهم إلى غياهب الأذى والعذاب ، وإنْ ذُكر _ لِماماً _ صاح أحدُهم : " اذكروا محاسن موتاكم . " فتستعيذ الأفواه ، وتكتفي بالتمتمة .[كانت المقبرة تعيشُ الصمت الأبدي وتتنفّس هواءً مُحنَّطاً .. الموتى ينعمون برقادٍ سحيق يعمُّه السكون ، وخلوة طويلة انتظاراً لليوم الموعود ... لكنَّ حدثاً _ بمثابة صراخ وصِدام وقرقعة

سيوف خشبية مكتومة تتبارز _ استجدَّ يتكرر في أماكنَ متفاوتة من المقبرة رجرجَ خارطة القبور ؛ مُقضّاً النوم الساري للنزلاء الأزليين .. صاح النائمون : ماذا يجري ؟! .. ولماذا هذا الصخب المريع ؟ .. نحنُ لم نفعل ما يُغيض ؛ لا ولا شأنَ لنا بالآخرين .. صمتوا قليلاً بانتظار مَن يرد أو مَن يلغي مسببّات الحدث عبر التوضيح ، ثم الاعتذار ... غير أنّ أسئلتهم امتصها الهواء المُحنّط ، وجففّها .] ..

دفنوه واستراحوا .. أهالوا فوقه مراثي الفقد وأكواماً من النسيان المرغوب .. قالوا سيتولّى الملاكان مَهام استفهامه ، وعسى أن يدوّنا في أجندته ما يعينه على الاستغفار فينال عفواً ربّانيّاً [تضرّعَ لهما وهو يتعفَّر بغبار الوحشة ، مُعلناً أنها النفس الأمّارة بالخبث قادته إلى مسالك السوء فآثر إغاضة الآخرين ، مُبتهجاً لعذاباتهم .. أفصح أنَّ ترياق لذّته كان صديد جراحاتهم ؛؛ وفاكهة روحه المُرتجاة لا يقطفها إلاّ من جنان صرخاتهم وأنين نفوسهم ، وكمد دواخلهم .... حيال اعترافاته أعلن الشفيعان إنَّ خالقه شفوق رحيم . فاستقرَّ رائقاً مطمئناً .. وزاد من اطمئنانه استقبال الموتى له بحنوٍّ دفيء ومواساة رهيفة ، قائلين : هذا حال الأولين ومآل القادمين ، فلا تتكدّر . نحنُ أخوّةٌ لك وأخوات .]..

قطعاً سيصير ذكرى لدى الآخرين ،ويوماً بعيداً . والحياة تأخذ مجرى النهر الذي أوّله منبعٌ وآخره مصب . الناس فيها ماءٌ جارٍ ، يستأنسون الأرض المنسابة مثلما يجزعون للتعرّجات والانكسارات المبُاغتة / غير المحسوبة ... لكن ضجر النائمين تفاقم ؛ وتعالت شكاواهم . أمسوا _ ليلياً _ يُقتحمون بصراخٍ وضجيج / تصادم سيوف خشبية مكتومة / تكسُّر آجرات جدران ، فيصرخون بأعلى طبقات تذمّرهم : ما هذه الفوضى التي حلَّت لتسرق رقادنا ؟! وكيف حصل هذا التغاضي عن محاسبة الجُناة ؟ .. من يرتكب هذه الفوضى الهادرة ؟ ولماذا؟! ..

طفقوا ناهضين .. تركوا أجداثهم وتحركوا صوب رقعة الحدث .. وهناك رابهم المشهد وأفزعهم . رأوا أقرانهم الموتى في حومة صراع يتقاتلون . أسلحتهم عظام يتقاذفونها ؛ وشاهدات القبور دروعاً يتّخذونها .. تتفكك الهياكل ، والصراخ يعلو : صرخات غضب / صرخات عنف / صرخات ألم ... ولقد هالهم الأمر لحظة أبصروا النزيل الجديد يتكئ على انهمار قبر يُتابع بانشراحٍ وجذل حيثيات الموقف ثم ينسلُّ متخفّياً ، بينما الذين خلّفوه تحتهم ظنّوا بموته أراحَ .. واستراح .

زلّة – نيسان 1999

(10) شغف ومتحلقون

لحظةَ توقفَ هديرُ المحرِّكِ شرعوا بجديّةٍ مُعدّة ، وهدفٍ مقصود في النزول من مؤخرة السيارة اللاندروفر ، وإنزال العِدد : طبول ودفوف وأرقاق مع صنوج برونزية أحدثَ اصطدامُها صليلاً يشبه تصادمَ سيوفٍ تتبارى

... وجوهٌ سمرٌ لفحها صهدُ الأرض وفحيحُ الهواء تلمع جرّاء سيولِ العرقِ الراشح من الرؤوس أو الهابطة من الجباه على الوجنات البارزة .. سحبوا الأنفاسَ بعدما أتمّوا إنزالَ مقتنياتِهم وتحركت السيارةُ مبتعدةً .. خطوا ليتخذوا موقِعاً مُعتاداً (إنهم يعرفون هذي الأرض الرملية الخلاء .. يأتونها كلَّ عامٍ ، وفي هذا الوقت الخريفي تحديداً ليؤدوا مراسمَ توارثوها عن أسلافهم وسط حشدٍ يزداد توالياً كلما ابتعدت شمس الظهيرة من معالم الواحة .) نمت همهمةُ صدورٍ ، وابتدأ حوارُ نظرٍ تجاوزاً للكلام ، فالجميع يُدرك الأمرَ لكنَّ عيني الرجلِ الخمسيني الأسمر اللميع حامل الطبل الأكبر كانتا تطالعان حجمَ الحشد – المُشكِّل حلقةً واسعةً حول جوقِ أداء المراسم– وتبعثان نظراتهما إلى ما وراء التحلّق .. حين أتمَّ النظرَ استقرت دواخلُه .. حسِب هذا العام لا يختلف عن الأعوامِ السابقة . لم يقل العدد ، ولم تهيمن سلطةُ صحونِ الأقمار الاصطناعية على أسطح المنازل في تبديد العادة السنوية . وشغفُ المتحلقين ما زال هو ، هو يتحيَّن البدء . لذا أيقنَ أنَّ لحظةَ التطلّعِ أزفت ، وأنَّ الكفَّ الماسكةَ بالعصا ينبغي أنْ تضرب ثلاثَ ضربات على قلب الطبل الذي يشدّه بحزامٍ جلدي لكتفه ، ويسنده باستقرارٍ وثيق على بطنه .

تحركت الفرقةُ بأكملها تؤدي الفعلَ المُفتَرَض فارتجَّت دواخلُ الطبول الصغيرة المشاركة توافقاً مع أغشيةِ الدفوف ، واصطدمت أقراصُ الصنوج بعضها ببعض ، فتعالى الصليلُ يشقُّ الأرجاء . وتلقَّت الأرقاق نقراتُ الأكفِّ وأطرافُ الأناملِ تحت هيمنةِ مزمارٍ قصي مزدوج ينفخُ فيه رجلٌ أربعيني انتفخت أوداجُه ، واحتقنت رقبتُه ، وبرزت عيناه بيضاويتين .

وبانتباهٍ مُلفت تصالبت أنظارُ الجموعِ على حفنةِ شبّان يتركون التحلّقَ البشري ويدخلون بؤرةَ الموقعِ ، قريباً من العازفين ليمارسوا – متماسكينَ كسلسلة – رقصةً منسَّقةً أساسُها النهوض بالجسدِ وضربِ الأرض بقدمٍ واثقة ... اهتزت القامات ، وانحنت قليلاً إلى الأمام .. ارتفعت الأقدامُ وهبطت هبوطاً واحداً على إيقاع الضربات التوافقية .

بدت الشمسُ كأنها تمارس احتفاءها معهم فلم تزُد إلا سخونةً ؛ فسال العرقُ على الوجوه غزيراً ، وانحدر إلى الرقاب كالسيول ، وشعرَ العديدُ من الشباب المنغمسِ داخل الحشد أن عليهم إعطاء فرصةِ استراحةٍ للمؤدين فاندفعوا يأخذون دورَهم بطاقةٍ متأججة ورغبة عارمة ... عيونُ الحشدِ تتكاثف . تبعثُ بريقاً يعكس مزيجاً من حبورٍ واندهاش ... وتناهى صوتُ خجول لصبي يبدو أنه يشهد الطقس الماثل لأول مرّة : كم جميلٌ هذا الأداء ؟! .. ولكن لماذا الكبار فقط يدخلون ؟... لم يرد الكبارُ الواقفون وقد سمعوا تساؤله ، بل أجاب فتى يكبره بقليل : إنها رقصة (القانقا) ، لا يمارسها إلا الكبار لأنها صعبةٌ ومؤذية . انتظر حتى الغروب وستعرفَ الجواب ... لم يفِه الصبي بشيء ، وانشغلَ يتابع بعينِ الدهشةِ والفضول . واستمرت أصوات الدفوف تخترق الهواء ، وتتتالى ... المزمار يعلن هيمنةً هارمونية مع الآلات . وبدا أنَّ التعب أجهدَ العازفَ مثلما أنهكَ الضاربين الدفوف والاصناج . وبدت الشمس تشعر بإرهاقها فشرعت بالانسحاب . ولم يفقه الصبي المتسائلُ سرَّ العصي الخشبية القصيرةِ الغليظة " المتكوِّمة " وسط التحلّق ، ولماذا رُفِعَت من قبل الراقصين إلا بعد أنْ واجه كلُّ واحدٍ غريماً له وراحوا يؤدون رقصةَ المبارزة والضرب على الرأس .

ولقد دُهِشَ عندما أبصرَ الدماءَ تتفجَّر من الرؤوس وتسيلُ على الجباه ممتزجةً مع نزيف العرقِ والصرخات تتعالى من الحشد ، والمتعة تشيع في الأنحاء فيعمُّ صوتُ المبارزةِ الخشبية ويستمرُ نفيرُ المزمار مع ضرباتِ الطبل الكبير ... ويطالعُ الرجلُ الخمسيني حيثيات الطقسِ الماثل فيثمِلُه إحساسٌ بالرضا ، مثلما يُقرر إيقافَ

الضربات على الطبل إيذاناً بالختام ، وليترك للمتبارين فرصةَ احتضانِ احدِهم الآخر وسط اندفاعِ الحشدِ إليهم والدخول بينهم مشاركةً للمتعةِ الكبرى ، وانتظارِ عامٍ جديدٍ مُقبل .....

زلة

2001/8/13

(11) هواجس ممضّة

لحظة أطلّت من غرفتها في الطابق العلوي مستعينة بالشرفة لاغتراف حفنة هواء رطيب كانت النجوم قد توارت ، لكن الشمس لمّا تزل متخفيّة خلف أستار الأفق ... شرعت تمسح تفصيلات الحديقة أسفلها ، حيث الزروع الوطيئة تطفو على عتمةٍ تحاول الهرب من مقدمِ الصباح ...تطلعت إلى شجرة " السرو " الناهضة فأيقظت لديها شعور التوقف والنظر طويلاً إلى الجذع الذي أعادها لحلمٍ مرَّ بها قبل قليل ودفعها للخروج إلى الشرفة ... في الحلم رأت نفسها بعمر عشرة أعوام ، تتحرك وسط بهجة أبيها الجالس على كرسي – أسفل الشرفة _ كعادته كل صباح ، على بلاط الأرضية الرخامية بانتظار كوب قهوةٍ ستأتي به الأم ساخناً ، يتابع قطفها لحزمة زهرات " دفلى" بيضاء تجمعها مكافأةً له على هديّةٍ قدّمها لها في واحدةٍ من ساعات التهنّي والانشراح . [الهدية صندوقٌ صغير / لميع ؛ ما أن فتحته حتّى تجلّت أمامها فتاةٌ تحيطها هالةُ ضوءٍ . تقف على قدمٍ يحمل قواماً رشيقاً ببدلة رقصٍ شذرية ، تدور على أنغام بيانو مستحمّةً بالرومانس ..] .. بومضةٍ أبصرت يداً تخرج من جذعِ الشجرة تختطف – بحركةٍ خرقاء – الباقة مخلّفةً صمتاً مخيفاً يلطّخ الفضاء ... كان الأبُ يشهد التفاصيل لكنه لا يعدم يُظهِرُ ردّاً .. تعدو إليه صارخةً / فزعةً / مستنجدةً . بيد أنّه ببرود العاجز / الصاغر يحتضنها ... وقبل أن يُقبّلها على خدها يكون الحلم قد انتهى .

تفرّست في الشجرةِ فلم تستشف ما يريب ؛ إذْ كثيراً ما سقتها ولعبت أيام طفولتها في خثرة فيئها فما بالها الآن تعود لتمثّل فحوى الحلم ، وتظهر كما لو كانت عدوّةً ؟ ! ...

استدارت عائدةً لغرفتها ، ألفت زوجها يرحل في نومةٍ هانئة.. الغطاء يدثّر جسده إلاّ الوجه الغارق في دعةٍ وانبساط ... وبنظرةٍ زاحفة لمحت هديتها المقدّمة منه قبل ثلاثة أيام تنتصب على رفٍّ جمعت فوقه جملةَ هدايا أثيره عندها – لعل أحدها ذلك الصندوق الجميل / ابتهجت ... غير أنّ شيئاً ما كالهاجس خلق قلقاً . عادت تتذكّر موت أبيها بعد أسبوع من تقديمه الصندوق هديةً / مقتولاً بطعنات غادرة في حديقةٍ عامّة ضيّعتْ كلَّ أسباب القتل ، ومسحت جميع معالم الاكتشاف .

نفرت متطيّرةً .. تناولت الهديةَ .[الهدية ماكنةُ قطار تجرُّ ثلاث عربات . خمّنتْ أنَّ كل عربة تمثّل عقداً من الأعوام ؛ والثلاث عقود هم عمرُ زوجها الذي يكبرها بعامين .. ونوافذ العربات مسدلةُ الستائر باستثناء آخر نافذةٍ من العربة الأخيرة ... هناك وجهٌ لقردٍ يضحك . خالتهُ يمدّ لسانهُ استفزازاً ..]. استدارت عائدةً إلى السرير تتدثّر ؛ مطوّقةً إيّاه بذراعين مختلجين .

مرتبكةً / وجلةً قضت ساعات ذلك النهار ... وفي الليل صرفت وقتاً ممطوطاً تنتظر مقدم الزوج العامل في محطة قطارات المدينة ؛ ما لبثت أن استسلمت لنومٍ مربكٍ / هزيز ، لتستيقظ على انطلاق رنين الهاتف في لحظة قاربت لحظات استيقاظها المفزع لكابوس الأمس.. نهضت مرتعبةً .

بموجةِ خوفٍ مُهاجم ، وتوجّس مريب رفعت السماعة تصغي لصوتٍ رجولي حنون :

– نأمل حضورك لمركز البوليس . ثمّةَ أمرُ يتعلّق بزوجِك . كوني هادِئة ...

زلّة – 9/11/ 2000

القسم الثاني

فم الصحراء الناده

خلافاً لعديد المفاجآت المتوارية خلف كثيبٍ مهمل أو تحت أجمَّة ظليلة تحركت _ تاركةً ناقاتها يسرحن _ منسلخةً من صفوة الفتيات اللائي يقاربنها الأحاديث .. دافقات بالشدهِ رُحنَ يستفهمنها فلا تجيب " لا يفقهن سرَّ النداء الهاتف في المدى الوسيع / المحيط لرؤاها ورؤيتها حيثُ العين تطيرُ وتحطُّ عند البئر الماثلة هناك ، متوَّجةً بصفيف الأحجار الناحتة فماً فاغراً باتجاه بياض السماء ، تبثُّ نداءات متوالية / ضاربة في سحيقٍ زمني .. هذه النداءات لا يسمعها سوى أولئك المزحومون بالأحلام / الموبوؤن بالرحيل عبر عراءات شسيعة بهيئة أمنيات (تحكي مرور سيدة الحقبة العبّاسية النيّرة ؛ " زبيدة " بخبائها ووصيفاتها وحرّاسها ، وأدلاّئها ودهشِها العميم وهي تبصر المدى خلاءً رملياً يعدو متهافتاً ، مقضوماً بدكنة الأفق المديد .) . نأياً عن صهد الأرض الرخوة ، وفحيح الهجير المستبيح استطالات النهار الصحراوي ارتأى المصاحبون خلق ما يُبعد الإمرأة المُهابة عن نواجذ السموم اللاهبة ، ورشق الرمال الضاربة ذرّاتها بناريةٍ لسيعة ، فصرّحوا : " لا نجد ذلك إلاّ أخدوداً في جوف البئر ." ..

تحركت والجديلتان تمسّان بذؤاباتها انحدار الجذع نزولاً إلى الخصر اللميم ، باعثاً حفيفاً متواتراً بتوازن تقلُّ سورات زمنه فتبوح بثقل الخطو كلّما اقتربت من بؤرة النداء / البئر .. أطلّت تتبصَّر انتهاء المسار الغائر عمقاً .. أغراها امتداد الحبل الوالج إلى المتاهة القصيّة / إلى اليم العتيم .. تمتمتْ بدفين السؤال : أحقّاً ما قيل ؟! .. ولم يطُل الرد .. إذْ سرعان ما سمعت همساً ووشوشة ، ثم كركرات مبتورة تتسلّق إليها من الأعماق برنين ناغم / جاذب ،يعمِّقُ صدقَ الحكاية فتبيّنت نفسها مدفوعة بفضولٍ بريء أو رغبة مُدافة باصرار للامساك بالحبل الوالج الذي هبطَ بها وئيداً ؛ عائمة في خثرة هواء مُندّى ، له عبق مياسم ورود بريّة كثيراً تشممّتها عند مواسم الفيوض الخضر ، ونهارات العشب البليل ... راحت تهبط .. تهـ.. بط . حتّى إذا مسّت أصابعُ قدميها حافةَ أرضٍ صُلبة وأحسّت بالماءَ يلامس أطراف الأصابع تركت الحبل لتستقيم أمام أخدود مُشع أسفر عن وجود سيّدة الحكاية محاطةً بوصيفتيها اللتين ما أن نهضت من على مكعَّبٍ صخري حتى هبّتا لسماع رغبتها في النزول إلى الماء ... رأتهما تنزعان الحُلي من عنقها وذراعيها ، ثم تخلعان ثوبَ ها القطني داكن الاخضرار / المُخرَّم بمنحنيات هلالية ودوائر عينيّةٍ ، مُظهرتان جسداً لإمرأةٍ أربعينية شرعت بالامتلاء .

وقبل أن تدفع المُحاطة بالإجلال قدماً تفضُّ به سكون الماء فوجئت بامتثال الفتاة إزاءها، فانبرت ناطقةً : " من أنتِ ؟! .. كيف وصلتِ ؟! "

هربت الكلمات من الفمِ الصغير / تحنَّطت اللحظات / شعرت أنَّ البئر بما امتلكت من رغاويَ لا تسعفها في تضئيل حرارة فائرة عجَّ بها الرأسُ بغتةً .. لفّها الذهول ؛ وانبرت محاجر الحيرة . تساءلت : كيف أُجيب ؟! . غير أنَّ فمَها تمرَّد : " أنا وسمة . أنا البدويّة التي تجرأت للوصول إليكِ وحلُمَتْ أن تكون إلى جوارك في حلّكِ وتحركاتك ! " ...

من عمق الماء الذي احتوى الجسد الغاطس / العائم سمِعت صوتَ السيدة يستفهم : " وهل ما زلتِ على قرارِكِ ؟! .. أتتركينَ نفسَكِ وأهلك وصحاريك ، وتأتينَ معي ؟! " ...

كانت على وشك إعطاء الرد القاطع ، من شِعاب الروح الراحل على كفِّ الحُلُم عندما وصلتها أصواتٌ سحبتها رويداً ؛ رويداً إلى أديم الصحو ، فوجدت أنّها ما زالت ممسكةً بالحبلِ المُتدلّي ، وسط نفحات رطيبة / رخيّة ، تؤومها من فراغ البئر ؛ فيما قريناتُها يقتربنَ ، والناقات بتبعثُرٍ _ تستدعيه الأجمّات _ منهمكات في القطعِ ، والقظمِ ، والاجترار .

السماوة صيف 1994

صحراء .. وحكايات

(1) أخوانٌ ضباع

تلك الأيام كانت الإخبار تردُ طائرةً على كتفِ نسمةِ شتاءٍ باردٍ وزمهريرٍ كان أهلنا يصفونه جلِفاً كجلف " الأخوان " فنتساءل بالتياع : كيف يُسمَون " أخوان " وهم ينقضّون بقسوة الذئاب على الضحية في ساعةِ غفلةٍ أو لحظة تشفّي .
رأيناهم يذبحون مهجهج ذبح الشاة بعدما نفذ عتاد بندقيته وسقط الخنجر الذي استله من حزامه الجلدي العريض بعد عدة طعنات وجهها لبدوي غازٍ .. سقط مهجهج إثر رصاصة جاءته من الخلف ثقبت له ظهره محدثةً ناراً توهج لها ثوبه . الدخان الأسود أعلمنا بتأثير الرصاصة . سقط مهجهج على وجهه لكن غب انتهاء القتال وهروب أمهاتنا وأخواتنا مرعوبات يلذن ويختفين في ثنايا الأرض ووراء التلال شرع المتجنون يتفحصون القتلى . يتفحصونهم بوضع أذانهم على صدور الضحايا للتأكد من موتهم . وحين وقف احدهم عند جسد مهجهج وقلَبَه على ظهره استل خنجراً ، وبقسماتٍ عدوانيةٍ وعينٍ لا تعرف الرفيف أجهز عليه . ضربه بطعنة عشوائية في رقبته انتفض لتأثيرها جسد مهجهج الجريح ثم راح ينحره بحد الخنجر المتعطش للدم ، بكلِّ ما امتلك من طاقة متبقية استنفذها في مواجهة المدافعين عن مالِهم وأهلِهم ما لبث أن رفع رأسه يخاطب أصحاباً له يؤدون نفس الفعل مع مغدورين آخرين : هذه أجمل قتلة أنجزتها .. لقد شفيت غليلي .
رأيناهم يحرقون خيامنا ويستولون على جِمالنا وأغنامنا وسط فرح غامر تفشيه حركاتهم المرحة وخطاهم المتبخترة ، فصارت كلمة (أخوان) تعني الإغارة والدم والاستباحة ، وصار الاتجاه الجنوبي الغربي يعني الكابوس الذي تجهد دواخلنا في انتزاعه لما يجسد أمام أنظارنا من رعب وهلع وفزع . وصارت أمهاتنا كلما حاولنا الابتعاد عن أعينهن يهددننا بالإخوان فنتقهقر عائدين تلاحقنا الملامح البغيضة لتلك الوجوه الصفر والقامات المتقزمة التي تنط كما لو كانت ضباع تتحين أوان غفلة البراءة لتنقض بكل جيوش عدائها وبغضها ، وكراهيتها لتذكرنا بمهجهج وما فعلوا به .. وما سيفعلون إن هم ضفروا بنا .

السماوة / الثلاثاء 8ك2009

(2) أيقونة الثكالى

لا تلوموا أبا عمران إن بكى ولا ترموا لومكم على الناقة (مصيبيحة) كذلك ؛ فكلاهما يذرفان الدموع .. هو يذرفها مواساةً لها ، فهي ناقته . وهي تذرفها لأنها فقدت (مجبل) ، حوارها الأثير . وموت الحوار يخلق لدى الناقة مأتماً لا يجاريه البشر في كمدِهم ، ولا تستطيع باقي المخلوقات تجسيدَه كما تفعل هي .
مات مجبل ولمّا تنصرف ثلاثةُ أيام على ولادته . مات ميتةَ العليل الذي لا يغيب عن الحكيم التنبؤ بذلك ، لكنَّ الناقة ظلت تبكيه بصراخ يشبه صراخ الأمهات الثكالى حين يفقدن عزيزاً في غفلة من التصور . وخشية أن

تضرب عن الأكل كما فعلت رفيقةٌ لها من القطيع قبل أعوام حتى لحقت بحوارها الفاني عمد أبو عمران إلى غواية (البَو) . والبَو يقتضي قص قطعة من جلد الحوار ساعة موته بمساحة منديل قام أبو عمران بحشوه بحشائش حافات الفيضة ثم طلب من أم عمران أن تكورها وتخيطها وتجعل لها خيطاً من الوبر يركنه على ظهر الأم الثكلى .

والأم كلّما حنَّت أدارت رأسها ولوت عنقها إلى حيث تتكىء الكرة الجلدية فتشم رائحة حوارها مجبل ، فتشعر انه معها ، فيخف الحنين ، فيتكرس الاطمئنان ، فيتوقف الدمع ، فتنطلي الحيلة .

ولأنَّ ضرعَها يضجُّ بحليبِ الأمومة ، ولأنَّ على الحوار أنْ يمارسَ طقسَ الرضاعة يروح أبو عمران يمارس متواليةَ الحيلة ، فينزل الجلدَ المتكور من على ظهر الناقةً لتتشمم ، فيدرُّ ضرعُها بالغزير من الحليب يجنيه أبو عمران بممارسةٍ يوميّة بناءً على قانونِ الحنان الجدلي بين أم تُطعِم وابن يُطعَم بينما العينان الوسيعتان يبصرهما تسيلان دمعاً سيّاراً تخبرانه بغيابِ مجبل الأبدي وتُعلِمانه أنَّ المخلوقَ يتقبّل الفقدَ صاغراً ، وهو مغلوبٌ على أرادته . فيروح يبكي ، مردّداً : لا تلوموا أبا عمران إن بكى ، ولا ترموا لومكم على الناقة مصيبيحة .

الخميس 7تموز2009

(4) بحـــثاً

ما كان جديع ليبكي بدموع سالت دفيقةً على لحيته الشيباء وأولاده يبصرون فيه ما لم يبصرونه من قبل لولا المشهد الذي حصل له ذلك العصر وهو يمسك بالسكّين لينحر (الضب) الذي صار عشاءً للعائلة في تلكَ الأمسيةِ المُقمرة . ما كان ليجزعَ غب انتهائِه من أكلِ لحمِه لولا شعور أنَّه أكلَ لحماً أدميّاً كما يأكل الإنسانُ لحمَ أخيه . تلك اللحظة شعر أن ما كان يسمعه من أنَّ الضبَّ إنسانٌ مسخته آلهة الصحراء – عقاباً على تجنيه بقتل ضيفٍ حلَّ عنده فأغرته نفسه على قتله للظفر بما ظنّه كنز كان الضيف يحرص على عدم كشفه – حقيقةً وليس من عِداد الخرافات (لم يبرح الضيفُ صرَّتَه . وإذا صادف خروجُه لقضاءِ حاجة حملها معه. صرةٌ لُفَّت بإحكامٍ وبعِقَدٍ عديدة ليس بمقدور احد مباغتة صاحبها حين يغفل فيحلَّها ويعرف محتوياتها ثم يعقدها بيسرٍ من جديد . فلو كانت بعقدة واحدة لكان بالإمكان حل اللغز الذي يصاحبها وفك عقدة المضياف الذي راح فضولُه يتفاقم ساعةً بعد أخرى خصوصاً والضيفُ حلَّ ثلاثة أيامٍ متتالية .) . ذلك دفعه مع ساعة السحر إلى أن ينهض . يستل خنجره ؛ وبحركة دبيبة يدنو من ضيفه الراحل بزورق الكرى في بحر الأمان الذي أغدقه عليه المضياف . وفي اللحظة التي فتح الضيف عينيه ليتساءل إن كان في حلم كابوسي أم في حقيقة ترسم له مضيافه يجثم على صدره أخذ نصل الخنجر طريقه فحقق فعل النحر وسط شخير مبتور انتهك صمت السحر . (وكانت الصرّة التي أفتضَّت وحُلت من عقدها تحوي نعلاً نسائياً متهرئاً وخصلة شعر طويلة مُخضَّبة بالحنّاء ، وزهور قرنفل جفيفة هاجمت رائحتُها جشعَ القاتل .. لم تكن هناك مصوغات فضّيّة ولا ليرات ذهبية ولا مالاً . كانت مقتنيات زوجة صاغت من الأيام قلادة إخلاص يضعها الزوج المغدور على صدره فخراً ، وتقاسمت وإيّاه قهر الأقدار زارعةً له الدرب تفاؤلاً بصفاء حياة ستأتي ، لا بد أن تأتي . غير أن المُختلِس خطفها بصرخةِ رعبٍ تفجَّرت من صدرِها وقبضةِ كفٍّ ضغطت على جنبِها الأيمن فكانت الفجيعة .. في الصباح

هال أولاد وزوجة المضياف مقتل الرجل الضيف مثلما هالهم افتقادهم لرب أسرتهم . لكنهم غب البحث في البراري والتلال القريبة أبصروا مخلوقاً يزحف يشبه السحلية ، يدب ! ما لبث أن هرب لحظة رآهم ، متوارياً في أخدود غائر .)

ما هال جديع وروَّعه أن الضب رفع يديه وطوَّقَ رقبته وعيناه تنضحان تضرعاً أن لا تتحرك السكين لتنحره . لكنَّ جديع الذي راوغه هذا الضب وأتعبه بين تفرعات شجيرات (الشنان) وكثافة أعشاب (الكبّه) صممَّ أن ينال منه بجرة سكين باشطة تؤدي نحرةً خاطفة ظنَّها تكرِّس رجولته وفروسيته ، ولم يحسب للدمعتين اللتين سكبتهما عينا الضب قبل اغماضتهما الاغماضة الأخيرة .

السماوة / الثلاثاء 11/ 8 /2009

رمضاء الحكايات السخينة

(1) تلك الانبساطة المُبهَمة

هي ذي الأرض برمالِها السخينةِ للصحراء الحارقةِ بواطنَ أقدامِنا العارية التي فجّرت كوابيسَ الألم للمرأى الذي حصل !

وهوَ ذا الفضاءُ اللهيبُ لباديةِ الجنوب ولفحُ هجيرِها الرامض الذي تركَ في قلوبنا الصغيرة لوعةً وجعلَ أرواحَنا مُستباحةً بالمشاهدِ الثقيلة . فلقد كنّا ما أنْ نقترب من تلكَ الانبساطة المريعة حتى تتسلل إلينا بواعثُ أنينٍ ، وأصواتُ استغاثةٍ ، ونشمُّ روائحَ غدرٍ وسحقِ إرادةٍ تستحيلُ صورَ تطيّرٍ ورُعبٍ لا تنفك تلتصقُ بذاكرتنا الفتية فنهربُ لنُطلِعَ أهلينا ، ونتساءل عن جملةِ الأسرار الدفينة فيها .. لماذا تتسبَّب تلك الأرضُ الرخوةُ بكلِّ الهواجسِ التي تتجمع فتستحيلَ عاصفةً من رملِ القلق والهلعِ تُطيحُ بنهارِنا المنفتح على أفقِ البادية المَديد وتجعل من لياليا منابتَ للكوابيس والاستيقاظ المفاجيء المحمَّل بالخوفِ الكامدِ الكاتم ؟!

الغريب أنَّ الأهلَّ جميعاً يعرفون تينكَ الأسرار لكنهم يستغفلوننا بقلبِ الحديثِ وتبديدِ الاستفهامات في الوقتِ الذي يروحونَ يلتفتون يميناً ويساراً وفي كل الاتجاهات كما لو كانوا يخشون أنْ يكون أحدٌ سمِعَ سيلَ أسئلتنا واكتشفَ كثبانَ حيرتِنا المتراغية . ثم ينتهون إلى أنْ يطلبوا منّا النهوض سريعاً لتفحِّص إن كانت الجِّمالُ قد ابتعدت أو تفرَّط قطيعُ الأغنام في البريّة . فتموت الأسئلةُ ؛ وتحيا الأسرار .

ولكن لوقتٍ لا يطول ...

مؤكَّداً لنْ يطول !!

غَب ذلك صرنا نُراقَب من قِبلِ أهلينا حين نسوقُ أغنامَنا باتجاه تلكَ الانبساطةِ المُبهمة ، ونتلقى التعنيفَ إنْ اقتربنا وبعثنا بأنظارِنا صوبَ رخاوتها التي لا تشبه باقي ارض الصحراء .

هُم يفهمون أنَّ جرثومةَ الفضولِ تكبرُ في أذهانِ الصغار ، والاكتشاف ديدنٌ لا يمكن قتله .

وإذا كانَ مِن شيمِ الرجالِ كتمانَ الأسرار فإنَّ من قِيمِ النساءِ فضحَها . إذْ ما إنْ ظلّت أسئلتُنا تنهال على مسامع أمهاتِنا وخشين بدورِهنَّ أن لا نذهب إلى المكان بغفلةٍ منهنّ فنتسبب في غضبِ الآباء حتى رحنَ يَفِهنَ بفمِ الأسى :

ـ " إنهُ قبرٌ جماعي لأكرادٍ مغدورين ، يا أولاد ! عائلات بأكملِها دُفِنت هنا . شيوخٌ ونساءٌ وأطفال طُمِروا بلا رحمةٍ ، ولا إنسانيةٍ ، ولا مخافةٍ من الله ! . لا ندري لماذا ؟.. الذي ندريه إنَّ حكومتنا جاءت بهم فدفنتهم أحياءَ ، بلا صلاةٍ عليهم ، ولا شاهداتِ قبور .. دُفنوا فلم يبقَ منهم غير أنينٍ يشيعُ في وهدةِ البرية ليلاً كأنّه احتجاج منهم على السماء أو أنَّهم بأنينهم واستغاثاتِهم يُشيرونَ إلى أنَّهم ما زالوا أحياءَ يستنجدون ، بيد أنَّ لا أحد يستطيع الدنو خشيةَ البطشِ والتنكيل ، ومخافة أن لا يستحيل المُنقذ واحداً من المدفونين عِقاباً على ما تجرأ ، وفَعل . "

(2) فَمٌ كَتيم

على هديرٍ آلي لم نسمع مثيلَهُ من قبل آتٍ من مكانٍ ناءٍ تفجَّر الفضول ، واستُنفِرت مُحفِّزات الاكتشاف . ذلك دفعنا إلى ترك الناقات تسوح خلفنا والتحرك صوب مصدر الصوت . تجاوزنا التِلال ، وخلفنا الجرارَ المنبثقةَ من ترابِها ورملِها المتكلِّس وانطلقنا نقطعُ بإقدامِنا الصغيرة وفضولِنا الكبير الوديانَ الوطيئة ونعتلي الارتفاعات العالية . ولأنَّ الصحراءَ أرضٌ خلاءٌ لا تُعكِّرُها أصواتُ عربات المدن وجعجعة محركات مصانعها الثقيلة فقد بدا صوتُ الهدير الآلي قريبَ السمعِ ، بعيدَ المكانِ ؛ ما اضطرنا إلى مواصلة الارتفاع والانخفاض طبقاً للتضاريس الإجبارية ، وخضوعاً لجغرافية المكان ،، وصولاً أخيراً إلى ما يحلُّ لُغزَ تفاقمِ الفضول .(بالأمس سمعنا في جلسة تناول القهوة بعد العشاء أهلَنا يتحدثون عن قدوم شرطة كمارك البادية إليهم وتبليغِهم بواجبِ الابتعاد عن هذا المكان الذي ننصبُ فيه خيامنا ونرعى عليه إبلَنا والأغنام ، أو عدم التقرب من ذلك المكان الذي تأتي منه الآن موجات الهدير ، دون أن يُفصحوا أكثر . فقط أضافوا أنَّ فعّاليةٍ تخص الحكومة يُراد لها أنْ تجري بعيداً عن الأنظار .. ولخشيةِ أهلِنا من هكذا حكومةٍ لا تتسبب إلا بما يضرُّ الناس فقد ابدوا الطاعةَ وأظهروا الاستعدادَ للتحرّك ، على أن يكونوا فماً كتيماً لا يخبروا به أحداً ، ولا يردّوا على استفهامِ أحد .)

سلسلة تلال " الجبيلة " كانت المثابة التي توقفنا عندها وانبطحنا على رمالها الطحينية نشاهد الفيلم الحي الذي يدور فيُظهر لنا آلية " شفل " انهمك سائقُهُ بعملِ حفرةٍ وسيعةٍ هائلة فيما وقف حفنةُ عسكريين بملابس خضراء تشبه لون بعرِ جِمالِنا يؤشِّرون ويتطلَّعون ، ويبدو أنهم يقيسون سعة الحفرةَ وعمقها .. حسبناهم بادئ الأمر يحفرونَ بئراً للرُحَلِ منّا كيما نستقرَّ فنتخلَّصَ من قسوةِ الصحراء وحمّى العطش ونسبح بدفقِ الماء حدَّ الغرقِ العذب . وما كرَّس اعتقادَنا هذا وقرَّب الحسابَ من أذهاننا هو عددُ عرباتِ الحمل الثلاث المتوقفة على مقربةٍ وظننّا أنها تحمل آلاتِ سحبِ الماء والعِدد المطلوبة لذلك .غير انَّ المفاجأة المُذهلة التي رمتناً في يمِّ الدَّهَشِ والشَّده ابتدأت بالكف التي ارتفعت باتجاه هذه العربات فتحرك جمعٌ من جنود مدججّين بالسلاح يرتدون بدلات خضر تشبه لونَ بعرِ جِمالنا يفتحون الأبواب الخلفية للعربات ويسحبون بحركاتٍ خرقاءَ جموعاً من نسوةٍ وأطفال بمختلف الأعمار فيما آخرون اعتلوا العربات أو كانوا داخل أحواضها يركلون بعضاً من هذه الجموع وينهالون على بعض آخر بأعقابِ البنادق دون أن يأبهوا لصراخٍ راح يعلوا مِن أفواهِ الأطفال ، والرُضَّع منهم على الأخص .. مَا الذي يفعل هؤلاء بأولئك ؟! ثمَّ مَن أولئك النسوة والأطفال الذينَ يُساقون سوقاً لا يشبهه حتى سوقَ الماشية ؟ ولماذا يُضربون بهذه القسوة المريعة والكراهية البغيضة ؟ ما الذي سيفعلون بهم ؟! (حين غادر شرطةُ الجمارك مضربنا سمعنا أهلنا يدخلون حديث النقاش فيُعلن الشبابُ منهم الامتعاضَ من تصرف سلطةٍ لا تعرف للرحمة معنى ، مظهرينَ احتجاجاً كبيراً دعا آباءنا والشيوخ منهم التقليل من الغضب ، قائلين : " هذه سلطة لا تتواني عن فعلِ أي شيء ، وليس لنا قدرة إبداء رفضنا .. ألم تشاهدوا سجن نقرة السلمان كيف عاودوا مَلؤهُ بعدما أفرغ قبل أعوام ." لذلك ليس لنا إلا أن نتحرك مبتعدين .. هذا اسلمُ لنا .") .

حين جُمع الحشدُ البشري من العربات الثلاث في تكتُّلٍ واحد وسط طقسٍ جهنمي حاقد ارتفعت كفٌّ ضابطٍ قائد تتزاحم على كتفيه النجوم يدعوهم للبدء بالفعل .. والفعل تمَّ بدفعِ الحشد دفعاً أخرقَ إلى جوف الحفرةِ من قبل المسلحين وأسنان " الشفل " الذي نشط سائقه تلك اللحظة فأحسن المهمة ، وأتقن العمل ؛ غير مبالٍ

بموجة الصراخ والعويل وعبارات الاسترحام من العيون المستنجدة التي لا يفهمها لا هو ولا المنتصبون القساة الذين وقفوا يشهدون عملية الدفن الجماعي حتى منتهاها ، ثم استداروا ليستقلوا عربات فارهة تنتظرهم ؛ عائدين من حيث جاءوا لتغيّبهم الصحراء ، ولتحتفظ بما يدلل على أن جريمة مروّعة حدثت هنا في صحراء ظلّت عذراء على امتداد قرونٍ وقرون فلم يفتض صفاءها سوى قتلة عُجنت دماؤهم بوحل الجريمة والغدر .

(3) تحت الرمل ..

كان علينا أنْ ننتهي عائدين من رحلةِ الرعي بجمالنا عندما لفتت انتباهَنا خِرقةُ قماش تهفهف ، منبثقة من تحت الرمل وقد توجهت الشمس لتضرب بنورها البرونزي على نقوشٍ زاهيةٍ تحتويها الخِرقة فتُظهِرُها كما لو أنَّ أحداً ما تولّى قبلَ وقتٍ قصيرٍ دفنها لتكون دليلاً لقافلةٍ ستأتي فتنصب خيامها هنا . الخرقةُ شفّافةٌ ، غريبةُ النقشِ لا تمت إلى أنواعِ القماش التي تلبسه أمهاتُنا وأخواتُنا عادةً .
تلك الملاحظةُ ولّدت الاستغرابَ لدينا وأثارت الفضول ؛ فدنونا .
سحبها شاهر فلم تأتِ بيده . وجدها غائرة في دفين الرمل ؛ كأنَّ شيئاً ما يشدُّها .
صاح بنا : تعالوا ! ما هذا ؟!
نداؤه المغموسُ بالاستغرابِ دفعنا إلى الدنو منه وتفحُّص ما راح يسحبَهُ من تحت الرمل ويجاهد في معرفة منتهاه .
كبر الفضول ! .. صار بحجم الصحراء التي تضمّنا ، بسعةِ النهارِ الذي صاح بنا احفروا لأنني أوشكُ على الانطفاء .
حفرنا ؛ وحفرنا .. أزلنا الرمل لتتسعَ الحفرةُ . قليلاً وأُسقِطنا في هول أمر عظيم .. في يم مفاجأةٍ تراجعت إزاءها امتدادت الصحراء فغدت فسحةً بين دهشٍ عميم وخوف جارف ... فماذا اكتشفنا ؟!!
اكتشفنا الخرقةَ ثوباً لامرأةٍ دُفنَت حيّةً ، تحضن رضيعاً لمّا يزل يتعلق بثدي أمّه !
هل كانت مريمَ تحتضنُ عيسى الرضيع ؟ أم هيَ الزهراء تضم الحسين المغدور ؟
وحين جاهد شاهر في سحبهما برزت من بين الرمل يدٌ ، فإذا هي لفتاة بمثل أعمارنا وقدمٌ عجفاء لامرأةٍ عجوز .. ذلك أوقعنا في حيرةٍ تركتنا نهرع صارخين بأهلنا أنْ ثمةَ أناسٌ طمرتهم الرمال وعلينا إنقاذهم ..
لم يفاجئهم خبرُنا .. ولا هُم تحركوا للإنقاذ ... فقط رأيتُ أبي يسمح لخيطين من دمع خجول ينسابان على خديه الأصفرين الناحلين ، وأبصر شاهر أمّه في الخيمة المجاورة وهو يستنجدها تجهش في بكاء امتصته لحظات الغروب ، وصوت أتانا من وراء وبر الخيمة :
_ تلك ، يا أولاد عائلاتٌ لأكرادِ أبرياءَ طيبين سيقوا من أوطانِهم عنوةً ، ودُفنوا وهُم أحياء .. إنهم يقطنون في الجبال ولهم حياة هادئة هانئة لا يعكّرها سوى الحقد القادم من بعيد و ..... و..... .
تلك الليلة لم ننم بارتياح ..
وحين نمنا نهضت إلينا من ذلك الامتداد المرمَّض المرأةُ حاملةً رضيعِها ؛ ومن ورائها تحركت الفتاة ، تصاحبها عجوزٌ تنوء في خطوِها ، ثم جموعٌ من نساءٍ وأطفال لا يُعدّون .. تحركوا إلينا بوجوه بيضاء مُشرقة توردت خدودها ، وقامات بهية تسامقت انتصاباً . خطت ترفل بملابس فضفاضة زاهية غمرتها ورود جبلية مشرقة وقد نفضت عن ثيابها ذرّات رمل كانت عالقة بها . مدَّ الجميعَ أكفّهم إلينا كأنهم يدعوننا لقراءة ما

موجود في بواطنها ، فتدفقت من بواطن الأكف نوافيرُ ذكرياتٍ ، وشلالاتُ شوقٍ لجبالٍ خضرٍ يانعة نائية ، ووديان ترفل بوارفات الشجر ، وعيون ماء تضجُّ بالعذوبة والصفاء ؛ ترفع نداءَ شوقِها العميم لأهلِها الغائبين ، البعيدين .

السماوة

2007/8/25

أيقونـات صحراوية

(1) افتضاضات

حفنةٌ من تدفّقات اليقين نتوسَّمُها كيما ننفض عنّا غبارَ اشتعالِ الذهن ؛ ونعود مستحمّين بأمواه الرغبةِ في الحديثِ حيث سمِعنا منَ قبل ولم نصدّق .. سمِعنا وكنّا مزحومين بدافع التحققّات . ذلك ما جعلنا نترك الناقات التي بعهدتِنا ونعدو . نتعثَّر بأذيالِ أثوابِنا ادراكاً لـ" مخيبر " الذي واصل الصياح كنداءٍ يتطلَّب العجلة .. (على رخاء الرمل الرخو يتمثَّل انسيابُها . بنعومةٍ وانسلال ترسمُ حركةَ الانزلاق المتحلزن ، مُخلِّفةً أثراً شبيه الحركة .. لونُها يعكسُ صورةَ رملٍ يترجرج لولا نثار البقع البنيّة المغبرَّة ، بدءاً من مثلث الرأس المتشامخ حتى نهايات الذنب المُدبَّج . ومخيبر يتابِعُها بعين المتفحّص عندما فوجىء بخروجه من حيث لا يفقه (ما هذا الشيء ، المخلوق ؛ النزق ؟!) . ربّما الأجمّة هي التي أفصحت عن ظهورِهِ ؛ وربّما أحد الحيوز الغَورية ما دفع به بعدما حفّز شمَّهُ وزرَقَهُ بيقينِ الإحساس بوصولِ طريدةٍ هي بمثابةِ غنيمةٍ رُغم عسر المهمّة .. من مكانه نصف الظليل همسَ مخيبر : هو " الأرول ").. اعتلينا صفَّ التلال وانحدرنا متتبعين أثر الصوت المتقطّع بين الأجمّات : جسد مخيبر منكمش / العينان مستوفزتان / العصا متحفّزة كأنه هو مَن سيواجه المصير ... حين سمع لغطَنا واقتراب لهاثنا توسَّع جسدُه كما لو أنّه استعار أعضاءَ أخرى ولحماً جديداً ليستعيد حجمَه المعتاد . كفّه هي التي كلّمتنا عبر التلويح ، مشيرةً لنا بالتقرّب الحذِر.

جواره تركنا قاماتنا القصيرة تأخذ شكل التقرفص ، وعيوننا تمارس فعلَ التحديق .. رأيناه أولاً (.. لماذا تستعير مخلوقات الصحراء لونَ الرمل ؟! ولماذا يتربص أحدُها بالآخر؟ .. متماهين بالأسئلة المتهافتة أبصرنا رأسَهُ التمساحي يرتفع . تحفّزت قدماه الأماميتان تثبان بأقصى انتصابهما فيما جسده الحرشفي الطويل يتقوّس ، وذنبُه المخروطي بصلابةٍ وقسوةٍ يعطي مهمّة السند للهيكل المتحفّز .. يغرز العينين الوحشيتين في قوام المنتصبة قبالته بنابيها المعقوفين .) ..

كان البعد بينهما لا يتعدّى المتر . وكنّا نعود إلى حديث الأمس ينسكب من أفواه جُلاّس المضيف _ أبائنا وأعمامنا _ عن سقوط الأفعى رُغمَ كيدِها وحذقِها ونفاذِ سمّها السريع لشلِّ مُجابهِها .. خاويةً تتهاوى بعدما تفقد سماءَ الكبرياء ؛ وتجد أنْ لا كوّة أمل تنفذ منها سوى كوّة الاستسلام بخنوعٍ خانقٍ ، مُميت (القفزة الأولى حسرَت المسافةَ كثيراً فألفاها تغرز النابين في عنقه ؛ باثّةً اخضراراً سرعان ما توزّع الأعضاء لاغياً لون الرمل الذي يتَّصف به مظهرُهُ .)

ينتفض ! .. وبشيء من الوهن يتركها متحركاً صوبَ شجيرةِ شيحٍ خضراء . ومن مكانها تسمع الأفعى احتكاك حراشفه بالأوراق الخيطية فتدرك أنْ سيأتيها .. يعود إليها الانتصابُ . ترجع صبغةُ الرمال إلى جلده الخشن . تتّسع عيناها اندهاشاً . تخامِرُنا حدقات المتحدثين تسكبُ بريقاً ينمُّ عن حفاوةٍ باهرة لفعلٍ مكين وإصرارٍ لا تهشّمه الضربات الأولى حيث " الأرول " يأبى الاستسلام . والأفعى لمّا تزل بدافع الوجود الخَلقي الغريزي وطوق الصراع الذي وجدت حركتها محكومةً بسيطرته تصرُّ مجاهدةً على البقاء .

يتمظّهر المشهدُ من جديد : تنغرز الأنياب ؛ يخْضر الكيان .. تهتز كتلة الشيح .. يعود الأرول . لكنَّ العتاد السُّمّي الخزين في النابين ينضُب . يبقى انغرازهما في سُمك الحراشف لا طائلَ منه فتشرع قواطعُ الهيكل التمساحي تمزّق الأنسجةَ التي تروح تتخلّى عن توترها لهيمنةِ الارتخاء) . نمسكُ خيطَ التحقّق من مثول المشهد باعث الفضول .

وفيما تتساقط أنظارُ العينين اليائستين على اخضرارِ الشجيرة الماثلة وينشغل المُنتصر بالتهام فريسته يأتينا صوتٌ من بعيد :

_ هي ذي أفعى أخرى !

_ هو ذا أرول آخر !

ننهض ؛ وبقفزات فتوتنا الراهصة ننطلق لاستطلاعِ قادم جديد حيث الآماد الصحراوية عالمنا الممهور بالإسرار .. كثبان ، وأغوار ، وفيوض ، وعواصف ، وسكون . ثم تأمل .. تأمل .. تأمل .

هكذا نقضي الأعوام / الأعوام سعياً لافتضاضات تنتظرنا خلل مسارب الغيب الضبابي الجهيل ؛ قطفاً متواصلا لثمار الدَّهَش ، واستحماماً حميماً رائقاً بأمواه الرغبة في الحديث وتبادل الحكايات .

السماوة / نيسان 1993

(2) رَشَف

هالنا نداءُ الذي دعانا ، فاندفعنا دهشين / شغوفين / تائقين .. تركتنا أفياءُ الزقاق نرتمي أسفلَ دائرةِ شمس الضحى ؛ والصوتُ النادِهُ يسيلُ في قارواتِ آذاننا مُحفِّزاً الأحداق على ممارسة الاتساع بغيةَ القنص . نتساءلُ بعين البحثِ ونواصل الاندفاع عطاشى / جائعين ، نبتغي الرواءَ من حليبِ النوق المُرتجى . إنْ ارتوينا بارتِشافه سيمنحُ سيقاننا القوةَ في الجري _ سيشدُّ السواعدَ في الصراعِ (هناك !! عند انتهاءِ الشارع / قُربَ الانعطافةِ الشمالية اقتنصت عيونُنا هياكلَ الناقات الوفيرات ، تخطو مخلِّفةً آثارَ أقدامها _ طبعات كالقلوب الملأى بالشهد _ ذلكم ما كنّا ننتظرُهُ كلّما بانت بواكيرُ الربيعِ بعد غيوثٍ هطّالة تستحمُ بها المفازات القصيّة الامتدادات ؛ وكلّما شهدت مدينتُنا الصغيرةُ أرتالَ الجِّمال مخترقةً الدروب بحداءات البدو وهمهماتهم ، خروجاً نحو فيوضِ الأمواه العشبية) .

خفَفْنا ...

جموحُ الرغبةِ يسحقُنا / ترهقنا خشيةُ الفشل ..

والبدويُّ المتقدِّم نوقَهِ طفقَ يلتفت فيبصرُنا نعدو باتجاهه ... وبدلاً من أنْ نثير غرابتَهُ بلحاقنا إيّاه توقَّف ليشهد انحناءات قاماتنا القصيرة ، وركوعَنا عندَ طبعاتِ الأقدام .. نغرزُ خناصرَنا في قلبِ الأثر ، ونمتصُّ بابهاماتنا الحليب المفترض ؛ طعماً شهدياً أحسسناه يثخن داخل أفواهنا بلذاذات عذبة المذاق مع طبعِ النَّهَمِ المتفاقم في سحبه ، وسط ذهول البدوي هذه المرّة وغرابته ، مدافةً بالتساؤلات غائمة الإجابة .

الناسُ من على الأرصفة يحدّقون بالمشهد ، ويبتسمون ..

نحنُ من على الآثار القلبية نرتشف لذة الحليب ..
نرتشف .. نرتشف .. !
ولا نأبه ...

السماوة / نيسان 1993

(3) ذهول الغيب

على سكاكين الألم الدفين ودهاء المسالك المتعثرة كانت تتقدمه ؛ يجر الخطى خلفها جرّاً ثقيلاً . تكلمه بصوتٍ خفيض فلا يجيبها (الحنجرة معطوبة) .. البدوية التي كانت تمسح وجهه بنظراتها الحزينة تتمنى أن يفوه كما كان لكنها الآن تتأسى على تخاذله أمام كلاّبات شلّ المقدرة ... فيوض الأحلام غدت مندثرة / بائدة . الروحُ منسحق ، والقلبُ معصور .. معصور جداً . ما فاد السَّمن المُداف بصفار بيض الصقر (تقول) ولا ملاعق العسل الأسود ، ولا حتى تمائم الرجل (المري) فهل بمقدور طبيب الحضر شفاؤك ؟!. من أين جاءتك هذه البلوى ! .. البدوي الذي هو زوجها لم يفعل شيئاً سوى إنه رمقها بعينين باهتتين ، وكان داخلُها يضجُّ بالحنين مستعيناً كتوقٍ ذاتي إلى زمن التبجح يوم جاء بالذئبين الضاريين بعدما عملا نوائحَ للاهلِ ولمضارب الأقرباء ،، يجرهما بحبلٍ وقد تعفّرا بالرمال مثقوبي الجسد ، وقتها عزم أبوها على منحِها إياه هبةً لفعلِ الرجولة الباعث على الزهو ... شاهدا الرجل المكلَّف بالمساعدة ينتظرهما عند باب بنايةٍ يرتقي سلَّمُها صُعَّداً نحو العيادة المقصودة .. هتف بهما : لقد تأخرتما ...

حين نزلَ الثلاثة ، وبيد المُرافقِ وصفةُ الدواءِ طبع الصمتُ ختمَهُ ، مُكبِّلا لسانَي الاثنين ؛ وكان الرجل البدوي ذاهلاً / غريقاً في شدهِ التفكير . وكانت البدويةُ تبكي من وراء حُجب الرؤية ..(هي) ترى أفقَ الصحراء مُضبَّباً بدواكن الغَمامات ، وأعاصير الفقد . (هو) يتبين النهارَ مُحتدماً بالتلاشي / زاخراً بالقتامة ؛ فيما الصيدلي يكلّم حامل الوصفة : لا شيء فيها ! مهدئات فقط ؛ مهدئات لصرف الوقت ليس غير .. فيجيبهُ الرجل المرافق همساً : " أعرف ذلك .. أعرف . " . ثم يستدير ليرى إلى أصابع – السرطان – تنشب أظفارها المقيتة في الحنجرة التي عجزت صاغرةً عن النطق لرفيقة العمر ، واستكانت مُجبرةً لوحشيةِ المجهول .

السماوة / صيف 1998

(4) نحَتُ الأيام

لأيامٍ جهيدةٍ استمرَّ البدوي يبكي صقرَهُ الذي خذله بعدما جاءت الوقائعُ مُخيبةً للجميع .. يزرعُ نظراته عليه فيتأسى . يلمحه فتُثار لديه حمّى الشفقة ، ثم يأخذ الحنق حيّزه من الرحيلِ تفكيراً جرّاء ما سبَّبه من كلامٍ سيبقى رسيخَ ذاكرةِ أقرانه من البدو السائرين أو المستقرين (.. كان جوّاً ملبداً بالخفايا ساعةَ تركَ الصقرَ ينطلقُ رشيقاً / خاطفاً ،، سهماً يلاحقُ طيرَ الحباري : مليئاً بالوثوق / مُفعماً بالغرور . يحسبُ الطريدةَ يسيرةً ، هيّنة – لطالما حققَّ فعلَ الصيدِ العسير ، وتساقطت الحبارى والقطا ذليلةً / واهنة أدنى تقوس منقاره النافذ أو جافلةً بتأثير نشوب مخالبه في غضيض الأنسجة المشدودة ..) يبصر ريشه المتهرئ خيوطاً، والجلد المسلوخ حرقاً ، والعينين اللائبتين وهما تبوحان بانكسار مهين .

مُداهَماً بالايماضةِ السريعة يستذكر الرجلُ البدوي كيف انقضَّ صقرُهُ فأخطأ ، وكيف هوى فخاب ؛ وكيف بصقهُ الطير المُرتعب برشقةِ ذرقه الدفاعية مُبللّةً الجسد / حارقةً الريش ..

صارت ديمومةُ الخنوع تتبدّى إزاءه كابوساً مُرهقا . ما عاد يحتمل لهيبَ الفجيعة / ما عاد يجابِه عيونَ المستخفين .. ضراوةُ الألم لا معيق يكبحها ، والأيام تنحتُ حكاياها وتمر ، لذا فضّل بقرارٍ حاسم جعلَ الكفِّ السمراء تمتد إلى الغمد الجلدي ، تجوس بأصابع متحفزة كتلةَ الحديد الساخن في قيظ هذه الوهدة الحارقة ... تستله الكف ثم ترتفع بطيئة / مُصوبة العين الواحدة السوداء نحو العينين المَهيضتين .. يتوقف العالم حوله / والامتداد الرملي يرتسم مدىً زاحفاً يذوّبُهُ الأفقُ الغائر .. أوعزَ للعين أنْ تطلق صرختها الراهبة دويّاً ، هاتكةً سكون العراء بقايا بصيص للعينين الشاحبتين – وإلى الأبد – ؛ صانعةً لوناً قانياً شرع يُعلِّم قطراته على صفرة الرمال بينما انفلتت أنفاس ارتياح من الصدر المَكلوم بحسرةِ التطلع المُعيب ، وخشيةِ العار المحكي بين دلال القهوة الساخنة / تحت السقوف الوبرية أو في فضاءات الخصومات والألسن النارية ....

السماوة / خريف 1993

زيد الشهيد : نبذة تعريفية

* 5/10 مايس / 1953 : ولد زيد الشهيد في (السماوة) .

* ينهي مرحلة الدراسة الابتدائية والمتوسطة في السماوة ويدخل معهد إعداد المعلمين في الديوانية 1968 . يساق للخدمة العسكرية في ت2 1970 وينقل إلى وحدات الجيش المرابطة في الأردن . ثم يساق مرة أخرى لخدمة الاحتياط في الجيش ويخدم في شمال الوطن في سواره سبندار . يصرف ستة شهور هناك مستغلا أوقات الفراغ فيقرأ عشرات الروايات والمجاميع الشعرية والدراسات الأدبية ، ويملأ دفتراً بما يجول في خاطره آنذاك مديناً الحرب وسوقه وأقرانه الشباب إلى الخدمة في الجيش ؛ يفقد الدفتر مع فقدان أيامه التالية فلا يندم عليه إذ يحسب ما دونه فيه تمرينا لكتابات مهمة قادمة .

* يدخل الجامعة في العام 1980 ويتخرج من قسم اللغة الانكليزية – جامعة بغداد ، ويعترف لاحقاً في لقاءات معه انه أفاد من الأدب الانكليزي كثيراً .

* ينشر أول قصة له بعنوان (الدراجة) في مجلة الطليعة الأدبية – بغداد .

* يفوز بجائزة تموز الكبرى التي تقيمها صحيفة الجمهورية بقصته (مدينة الحجر) التي ستحمل مجموعته الأولى الصادرة عن اتحاد الأدباء العراقيين عام 1994 عنواناً لها .

* يترك دراسة الماجستير في أيلول / 1994 ويرحل إلى اليمن حيث يعمل مدرساً في ريف صنعاء . من هناك يواصل كتاباته الأدبية وينشر نتاجاته في الصحف اليمنية والعربية . يكتب مجموعة (اش ليبه دِش) القصصية ومعظم أجزاء رواية (سبت يا ثلاثاء) .

* 2004 يصدر مجموعته الشعرية (أمي والسراويل) عن دار أزمنة – عمان .

* في العام 1997 يعود إلى الوطن ، لكنه يشعر بملاحقة أجهزة النظام له وتحركها لاعتقاله بعد نشره قراءة تدينه بعنوان (أسفل فنارات الوقيعة) في مجلة ألف باء البغدادية فيهرب وعائلته إلى عمّان ومن هناك إلى ليبيا .

* في ليبيا يصرف ستة أعوام مدرساً في واحات الجفرة . يكتب مجموعة (فضاءات التيه) القصصية التي ستصدر عن دار عن دار ألواح في اسبانيا عام 2004 ، ويكتب معظم رواية (فراسخ لآهات تنتظر) . وينتهي من كتابة كتابه (الرؤى والأمكنة) نصوص المكان الليبي : العاصمة والواحات .

* في العام 2003 يصدر مجموع (حكايات عن الغرف المعلقة) قصص قصيرة جداً .

* نهاية العام 2004 يعود إلى وطنه ليكمل روايته (فراسخ لآهات تنتظر) وتصدر عن دار ورد – عمان 2006 .

* 2006 تصدر له رواية (سبت يا ثلاثاء) عن دار أزمنة – عمّان .

* 2008 تصدر له مجموعة (اش ليبه دش) القصصية عن دار تراسيم – بغداد .

* 2008 يصدر له كتاب نقدي (من الأدب الروائي – دراسة وتحليل) عن دار الشؤون الثقافية العامة

* 2009 يصدر مجلة (تراسيم) التي تعنى بالقصة القصيرة جداً ويرأس تحريرها . وهي أول مجلة عراقية تعنى بالقصة القصيرة جداً .

* 2009 يصدر له كتاب ترجمة مسرحية (طريق ضيق باتجاه الشمال العميق) للكاتب الانكليزي ادوارد بوند .

*2009 يصدر كتاب قصصي (أسفل فنارات الوقيعة) عن دار الينابيع – دمشق يضم مجاميعه القصصية الثلاث (مدينة الحجر) و (فضاءات التيه) و (إش ليبه دِش) .

* 2010 تصدر له رواية (فراسخ لآهات تنتظر) بطبعة جديدة عن دار الينابيع .

* 2010 يصدر له كتاب (الرؤى والأمكنة) نصوص مستلة من ذاكرة المكان عن دار الينابيع .

* 2010 تصدر له (سبت يا ثلاثاء) بطبعة جديدة عن دار الينابيع .

الجوائز :

- **الجائزة الأولى في مسابقة (تموز الكبرى) التي إقامتها صحيفة (الجمهورية) – بغداد عام 1993 .**
- **الجائزة الأولى في مسابقة (الأدباء التربويين) في الشعر التي أقيمت في محافظة واسط 2007 .**
- **الجائزة الأولى في مسابقة (جعفر الخليلي) للقصة القصيرة التي أقامها اتحاد الأدباء فرع النجف 2009.**
- **الجائزة الأولى في مسابقة (عبد الإله الصائغ) في القصة القصيرة التي أقامتها مؤسسة النور في السويد 2009 .**
- **الجائزة الثانية في مسابقة القصة التي أقامتها دار الشؤون الثقافية العامة 2009 .**
- **الجائزة الثانية في مسابقة هيئة النزاهة العامة الأولى 2010**
- **الجائزة الاولى في مسابقة الرواية التي أقامتها دار الشؤون الثقافية العامة 2011 عن روايته (افراس الاعوام)**
- **الجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة جداً التي أقامها منتدى نازك الملائكة 2013**
- **بريده الالكتروني :**

- **zaidsamawa@yahoo.com**

في هذه المجموعة من القصص القصيرة جداً يتخذ زيد الشهيد من الصحراء مكاناً لسرده ، فيرسم بشعريته المعهودة خلجات الشخصيات وتأثيرات المكان.. يتنقل بين صحراء العراق الغربية والصحراء الليبية ، والصحارى تتشابه..

كيف وظف عوالمه في تلك الحياة الخاصة بقصص قصيرة جداً؟ .. سؤال تجيب عليه بواطن هذا الكتاب.

الناشر

رند للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق/ جوال: 00963-944628570
Email: akramaleshi@gmail.com